حد الغواية

(رواية في شكل مُزرر)

عمرو عافية

"للغواية حد. فإن عبرت: غُرت أو طِرت."

باريس يوليو 1998

تتابعت خطوات طارق شاهين على رصيف شارع الشانزليزيه، وهو يلعن الزحام الذي يشتت أفكاره. ترفرف الأعلام الفرنسية استعدادًا لاحتفال اليوم الرابع عشر. يلمع حذاءه متناسبًا مع الشارع النظيف المغسول توًا بمطر زاخم مفاجئ. تابع أوراق الأشجار المصفرة المعروقة بالذهب وهي تنجرف مع الماء الجاري إلى مصافيه تحت أقدامه.

جلس على المقهى المتفق عليه. طلب قهوة فرنسية. نظر إلى ساعته، لم يحن الوقت بعد. توتره أوراق الشجر المبتلة الملتصقة ببلاط الرصيف وأرضية الشارع. تذكر أوراقًا خريفية يابسة تتساقط متموجة مع رياح الخريف الرقيقة فتتلامس برفق وتتهادى منفردة بلا التصاق قاتل كهذا.

مر يومان منذ وصوله إلى باريس. لم يستطيع أن يبدأ في إنجاز مهمته. تكاسل أول يوم وظل يحملق في ورق الحائط المشجر أمام فراشه في الفندق، وهو يفكر إلى أي مدى ستصبر عليه إيناس؟ تحمل تردده البندولي المُشِل؟ تعرف إيناس حرصه الدائم وتذبذبه في اتخاذ أي إجراء مصيري. قالت له متحدية وهي تنتفض أمامه:

"ألا ترى أنك بعد كل هذا الحرص والتردد، عادة ما تسقط في مغامرة خاسرة؟"

ولكن ها هي تتحدى غباءه بحبها. إنه يعلم هذا... تألم لأنه دفعها لأن ترهن حياتها هكذا بلعبة قمار معه. قالت:

"اذهب إلى باريس ولنطرح أي احتمال، مثلاً إذا وجدته، ارجع ونتزوج."

تحبه. نعم ولكنها تتيقن أنها بعرضها هذا تنقذه من نفسه وأنانيته.

رشف من فنجان القهوة وهو يتأمل السيدة التي تجلس أمامه، خمسينية أنيقة ساهمة، تقرأ في الكتاب الموضوع على منضدتها، وهي تقلب صفحاته بأصابع رقيقة وبحركات بطيئة. فكر: هذه السيدة في انتظار. ولكن في انتظار ماذا ومن...؟ لماذا نجبر على انتظار شيء نظن أننا لن نكتمل إلا به؟ لماذا لا نكتفي بذواتنا طالما سيُهزم كل شيء فينا؟

أغضب إيناس كعادته. فهي تواجهه بأنانيته دائمًا. تلك الأنانية التي يدركها تمامًا والتي يعرف أنها هي التي جعلته يصمد أمام الحياة منذ أن وعاها، لكن أي حد يتعدى الآن؟

وضعت المرأة الأنيقة ساقًا على ساق، فارتفع طرف فستانها، وككل إنسان يحس بمن يراقبه، رفعت رأسها عن الكتاب فتلاقت عيناهما للحظة، إلا أنها أكملت دورة رؤيتها ثم رجعت إلى الكتاب مرة ثانية.

مر يومان دون أن يخرج من الغرفة. أرسلت صاحبة الفندق العامل الجزائري إليه كي تطمئن عليه. لم يذق الطعام خلالهما وكادت زجاجة المياه التي ابتاعها من المطار أن تنفد. فندق صغير خلف الأوبرا. عندما قدم جواز سفره لها، ابتسمت قائلة: مصر! كم أحبها. ثم أشارت إلى كلبها القابع بجوارها وأكملت: اسمه سلطان. أعشق مصر كثيرًا. ابتسم للجزائري وقرر أن ينزل ليشكرها ويتابع ما جاء من أجله. تناول طعام العشاء بشهية مفتوحة. واتصل بصديقة "سالم منصور" الذي بادره بالسباب قائلاً:

"لماذا لم تتصل عندما وصلت؟ لقد هاتفت إيناس في الإسكندرية أطمئن منها."

"آسف، كنتُ مرهقًا من السفر."

"القاهرة باريس، ومرهق؟! ثلاث أيام منذ وصلت."

"لم أغادر الفندق. أريد أن أراك."

حدد له سالم المقهى والميعاد، وها هو ينتظره.

نظرت جارته إلى ساعتها وهي ترتشف القهوة من فنجانها. فكر طارق: ربما تنتظر سالم منصور مثلي. وبحركة كالعدوى ألقى نظرة على ساعته. منذ أن كان سالم زميلاً لهم في الجريدة وهو دائم التأخير. يقدر سالم إيناس جدًا لشجاعتها وصراحتها. تنقل سالم سريعًا حتى وصل إلى مكتب الجريدة في باريس، هو يستحق هذا لمؤهلاته وإتقانه عدة لغات. إيناس هي التي أجبرته على رؤية سالم في باريس – كأن مهمته الثقيلة التي رهنت حبها عليها، في إيجاد الدكتور هاشم ليست كافية لإنهاكه وإرباكه. ربما أصرت على ملاقاته سالم كي يساعده على أن يبدد حيرته وأن يرتب أوراقه المبعثرة.

ربت سالم منصور على كتفه. تصافحا بحرارة جذبت إليهما أنظار السيدة القارئة فرفعت رأسها فابتسم لها سالم محييًا، فأومأت برأسها مبتسمة. قال طارق وهو يجلس:

"أتعرفها؟!"

"هل نسيت أني أنا أيضًا صحفي مثلك. ولي حس الكلاب. أنا أحب هذا المكان ولذلك تعودت عليه وعلى رواده."

ثم باغته قائلاً:

"دعنا من كل هذا. ما الذي يحدث؟ ما سر هذه الزيارة؟"

"أبحث عن طبيب ا سمه هاشم الصادق."

"أتعرف العنوان؟"

"نعم."

"أي تخصص؟."

"لا أعرف؟"

سكت سالم ثم قال بنبرة قلقة:

"هل أنت مريض؟"

ضحك طارق شاهين فجأة ثم أجاب:

"ربما. ولكني لا أبحث عنه بصفته المهنية."

فقال سالم:

"ولا إيناس؟"

ربت طارق شاهين على يده وهو يقول:

"لا تقلق. عمل صحفي."

"الحمد لله."

طلب سالم منصور قهوة سادة. ظلا ساكنين حتى أتى النادل بها. وبدأ في شربها. راقب طارق السيدة جوليان وتراءت له السيدة هادية والدة إيناس، نفس العمر تقريبًا. قدمته إيناس لأمها في أول زيارة لها لمنزلها. امرأة قوية دون شك. رئيس أحد أقسام كلية الزراعة، ممتلئة مكتنزة على رأسها عمامة ضخمة تغطي بها شعرها لا يتناسب لونها مع لون العباءة التي تغطي جسدها. انجذب أكثر لأبيها، ربما لهدوئه والجلال الذي يحيطه والابتسامة الواثقة التي تميزه.

كادت أن تفلت منه آه استنكارية، عندما أرته إيناس اليوم الصورة القديمة لأبيها وأمها في سنوات الزواج الأولى. امرأة رشيقة جذابة تمتلئ حياة وتمتلك ابتسامة كالشمس. كيف يتحول المرء ويتبدل هكذا؟ لا ليس الهرم والشيبة، فأبوها قد هرم هو الآخر ولكن لم يتحول إلى كائن لا يمت بصلة إليه.

قطع سالم أفكاره وهو يسأل:

"ألم يحن الوقت بعد؟"

فهم طارق مقصد سالم إلا أنه تساءل وكأنه يكتسب بعض الوقت ليفكر هو نفسه في هذا السؤال وليس ليماطل في الإجابة:

"لأي شيء؟"

"زواجك من إيناس؟ ألم تحسم أمرك بعد؟"

هل يقول له عن رمي العملة التي تطير الآن في أجواء الفضاء الرحب وقاربت أن تهبط لتستقر، ونختار وننفذ ما حددته هي... إن أجده.... الملك/ السلطان/ الرئيس/ الطبيب..... يطالعني من وجه العملة سنتزوج.

أجابه بابتسامة مرسومة:

"سيحسم الأمر في القريب العاجل."

ثم طفت فكرة سريعة. هل يحب سالم منصور إيناس؟ أكمل وهو يوسع ابتسامته:

"هل ما زلتَ تحب زوجتك يا سالم؟"

ضحك سالم بصخب:

"نفس السؤال دائمًا. لا يا سيدي. لا يحب الرجل امرأته بعد كل هذه السنين. ولكنها سُنة الحياة. تزوج تزوج. تزوج. لتستحق ما سوف يجري لك. فأنت جدير به."

أكمل ضحكه الصاخب جاعلاً بعض واد المقهى يلتفتون إليهما، فنظر إليهم وهو يبتسم باعتذار ثم التفت إلى طارق مكملاً حديثه:

"أنا أرثي لحال إيناس فهي لا تستحق أن تعذبها هكذا... بدون زواج أو حتى لو تزوجتها."

فقال طارق ببرود محايد:

"لندع ذلك لما بعد."

تساءل طارق لماذا اتصل بسالم، حتى ولو طلبت منه إيناس. زملاء منذ ست سنوات منذ أن دخلتُ عليه في المكتب أول يوم لتعييني... لم يستطع أن يصادقه أبدًا، رغم صداقة إيناس له ورغم تقديره لمواهبها المتعددة، وربما أيضًا رغم إعجابه بإقحامه لنفسه في كل شيء ولتلك الجسارة التي يعلم أنه يفتقدها. أكمل حواره:

"هل ستساعدني للوصول إلى د. الصادق؟"

"دون شك. حتى وإن لم تقل لي لماذا. أين العنوان؟"

ناوله طارق البطاقة التي كتبها الدكتور فؤاد الصادق. قرأ سالم العنوان ثم قرأ الاسم بصوت واضح:

"د. هاشم الصادق. المكان ليس بعيدًا."

"إذن هيا بنا."

"لكن..."

"ماذا؟"

"علينا أولاً أن نأخذ ميعادًا بالهاتف."

"لا عليك. ربما لا يوجد أي شخص بهذا الاسم."

سكت سالم ثم قال وهو يهم بالوقوف ودفع الحساب:

"لن ألح في السؤال. هلم بنا."

في السيارة كان سالم يفكر في طارق وأسلوبه في الحياة. هل يناسب فعلاً إيناس أن ترتبط به؟ ثم سلم بالأمر الواقع قائلاً لنفسه: ما علينا، فإيناس تحبه وهي مدركة ما هي مقدمة عليه.

كان طارق يزداد توترًا كلما مرت الدقائق في اتجاههما إلى العنوان المدون. وطفا شعوره هذا فتساءل: ما بالي الآن... أخضع للخوف المستتر الذي يفضح نفسه ويتخلى عن كل حيله المعروفة. أنا أتبع خطواتي – خطواته المتخيلة مكرهًا. أي وجه من العملة سيستقر أرضًا إذا وجدته جالسًا خلف مكتبه وشهادات الطب معلقة على الحائط تتحدى عقلي وتوقعني في فخ أكبر؟

انتبه وسالم يقول له:

"نحن نقترب من حي لادفنس."

فكر طارق سريعًا. لا أريد أن أصل هكذا. تسارعت دقات قلبه.

"أنزلني هنا من فضلك."

"لم؟"

"أرجوك سأكمل سيرًا على قدمي."

هدّأ سالم من سرعته ثم صف السيارة قائلاً:

"أنت حر. يتقاطع هذا الشارع في نهايته مع الشارع المطلوب. أنت تعرف الرقم."

"أشكرك."

"عليك أن تحترس. ما زالت السماء ملبدة. قد تمطر فجأة مرة أخرى."

"لا تشغل بالك. سلام. سأتصل بك."

"مع السلامة."

تابع سيارة سالم وهي تختفي. ثم بدأ السير متمهلاً. بدأت السماء تمطر رذاذًا خفيفًا. رفع رأسه وتأمل السحاب المحمل بأمطار كالهواجس التي تؤرقه، وتؤكد من وجودها بزخات قوية لكنها سرعان ما تصمت. وهو في الطائرة أشعره السحاب بهشاشة موقفه والسقوط المحتمل، تحته نهر معوج وبرج منتصب يلخصان الدنيا له. أكاد لا أصدق أنني أقوم بكل هذا التحايُل لي ولغيري لأضع قدمي على بداية الشارع الذي يؤكد ويواكب تتابع الأحداث التي أرفضها.

يبدو مساره بلا هدف وخطواته تتفارش، لكنه مسير تمامًا إلى رقم **38** في هذا الشارع. فلقد أتى إلى هنا ليس لكي يصل إليه ولكن لكي لا يجده. وسأرجع لها واثقًا من قوتي وانعزالي وغروري وستنتفي كل الأيام السابقة ويُكمل جدار صلابته أمام سارة. سارة. أي عبث! يراجع مسارات روحه المتخمة بأناه وبالانتظار. ربما تُخلق لي (سارة) يا إيناس! وتختفين أنتِ كالوهم.

أمطرت فجأة مُكملة لحنها الجوي الخاص. الكون ينغسل بالماء ويومض. وحدي أنا لا أتأثر.

نعم أحبك يا إيناس. لكن رمية واحدة، حتى ولو تكسب، تخسر كل الأرقام الأخرى.

مغامرتي/ مسيري الخاص.

الإسكندرية مارس 1997

أراد طارق شاهين أن يجعلها سلسلة مقالات قوية تمنحه الفرصة التي تظن إيناس أنه يستحقها. العين الآن على محافظ الإسكندرية الجديد. أُهملت الإسكندرية طويلاً بمركزية القاهرة التي لا تطاق. انزاحت غمة وتطايرت في الجو رياح محملة بأحلام لأمجاد قديمة وعز مرمري غابر. تهامس الناس في المدينة الحزينة بتلك الأفكار التي تشارك جنون البحر في نواته، التي هجنت وما عادت تخيف أحدًا، وكأن محافظها الجديد سيعيد لها أجواءها القديمة ويخلصها من الأصياف التي باتت تزداد حرارة وقيظًا عامًا بعد عام، وفقد فيها الشتاء جبروته القديم المحبب المليء بالأصالة والجمال.

كانت كتاباته السابقة مهجنة أيضًا ومبتورة، أو كاملة بلا صدى. فنجرب مرة أخرى. أقلام كثيرة بدأت في مدح المحافظ الجديد لمجرد الشعور بالتعود وأخرى للتشفي في القديم الزائل.

تدل المعلومات على أنهم يخططون لإزالة عشوائيات العشش من المدينة في القريب العاجل. أولها عشش الحضرة التي رآها يومًا على شريط القطار بين محطتي سيدي جابر ومحطة مصر، أمام المستشفى الإيطالي الذي أصبح الآن مستشفًى عسكريًّا. فهذه العشوائيات تكاد تكون في وسط المدينة، خلف قلبها.

تحرى عمن يعيشون في تلك العشش فقيل له مشاغبون فقراء، بعض المنحرفين وأمثالهم، استقروا منذ فترة على الهضبة التي تعلو شريط القطار خلف المقابر.

نمتدح الترحيل أو نهاجمه لقسريته؟

مر أمامهم عدة مرات وهو يراقبهم من بعيد مستندًا على السور الفاصل بين الشارع ووهدة شريط القطار. العشش المتناثرة على الهضبة تحت ظلال الشجرات الكبيرة التي أفلتت من سور المقابر المتهدم، انعكاسات الشمس على التموجات التي تتوالى على الجدران المصنوعة من الصفيح الفضي واهتزازها الخفيف مع هبات النسيم. بؤس تام. يوجد هوائيات لأجهزة تليفزيون مسروقة الكهرباء من أعمدة النور. أطفال نصف عراة مختلفي الأعمار تلونهم القذارة متناثرون في المكان بين العشب النامي على انحدار الهضبة إلى شريط القطار أو بين صفيح الأكشاك.

هذه المرة قرر أن يعبر إليهم. اقترب فالتفت إليه الأطفال وتحلقوا حوله. شزر إليه رجل سمين جالس ببدن متهدل ذاهلاً يدخن سيجارة بدت لطارق محشوة بمخدر. حياه طارق وهو يرسم ابتسامة على وجهه. أجاب الرجل باقتضاب بين دخان سيجارته:

"وعليكم."

عرفه بنفسه وباسم الجريدة التي يعمل بها ثم أكمل:

"هل سمعتم عن خبر نقلكم الذي ستقوم به المحافظة؟"

وقبل أن يتحرك الرجل أتى صوت امرأة من خلف طارق مجيبًا إياه: "أيوه يا أخي."

التفت طارق إليها. صوتها محايد، تنظر بريبة ولؤمها يؤهلها أن تلون نبرته بما سوف يتبين لها من شخصية السائل. هي أيضًا تنتظر أتسب أم تمدح الحكومة. سألت بنفس طريقة الهجوم المحايد:

"ومن أنت اسم الله عليك."

"صحفي يا ستي."

مازال منطقه مغلقًا بالنسبة إليها. أكمل كلامه وسألها:

"أسعيدة أنتِ بهذا النقل؟"

"كل ما يأتي به الله خير."

التحقت بهم امرأة تحمل رضيعًا بين يديها وتهدهده.

"ألن تحزني على تركك مكانك هنا؟ أتعلمين إلى أين؟"

"لا. لقد قالوا لكني نسيت."

أكمل الرجل المحشش بصوته الأجش:

"زاوية عبد القادر"

فقال طارق بنبرة تشجعهم على المضي في الكلام:

"ألا ترونها بعيدة عن ما قد تعودتم عليه؟"

فقالت ذات الرضيع:

"البيوت أفضل من العشش."

"ألن تفتقدي هذه المنطقة؟"

وقبل أن تنطق نهرها الرجل بسباب فج فتحفزت له ولكن نظرة منه ألجمتها فقالت لاعنة الحشيش وشاربينه.

"والله لأبلغ الدكتور."

فكر طارق وهو يراقبها مبتعدة ومجموعة الأطفال تتبعها بتهيج واضح، أن كل هذه الشخصيات نمطية لا تكاد تخرج عن ما تصوره، حتى لقب الدكتور هنا مناسب لابتذال الألقاب الذي أصاب البلد كلها.

شدته صبية من طرف سرواله ونظر إليها وراعه جمالها الباهر رغم قذارتها البينة. داعبها بابتسامة ثم أعاد السؤال على الحشاش:

"ما رأيك فيما يحدث؟

فأجابه بزفرة تهكم:

"وما الذي يحدث بالضبط؟"

"الترحيل"

"قل يا باسط!"

يئس طارق من هذا الحوار العقيم الذي أعياه فسأله فجأة:

"إذن أين الدكتور؟"

نظر إليه الرجل وكأنه يتخلص من كل منغصات الدنيا فأجابه:

"هذا هو من يصلح للحديث يا أفندي."

لقط أحد الصبية الحديث فوجه كلامه إلى طارق شاهين.

"أنا أعرف مكانه. هل نذهب إليه معًا؟"

وضع يده على حقيبة طارق وجره منها. سارا وسط زفة من الأطفال العرايا، عابرين نساء ضاحكات مثرثرات لا مباليات، حتى وصلوا إلى عشة تشبه الأخريات غير أن قربها من سور المقابر جعلها وكأنها باب مجهول للولوج لهذا العالم. نادى الصبي بصوت عالٍ مبحوح:

"يا دكتور."

قلده كل الأطفال بطبقات مختلفة أضحكته:

"يا دكتور... يا دكتور"

تصور طارق أن هذا الدكتور سيختلف عنهم، إلا أن من خرج كان ممن يُطلق عليهم المتسكعين. شعر أهوج، نظرة زائغة تتملكك في بعض الأحيان. معطف طويل يبدو أنه لا يُخلع أبدًا. رغم عادية وجوده إلا أنه أقلق طارق لأنه كثيرًا ما تصور لسبب مبهم أنه سينتهي مثله. ولطالما حيره تصوره هذا. فكر طارق إنه ليس بخطر أو مخبول وأيضًا ليس بشحاذ. ابتسم له فرد الرجل بابتسامة

غائمة. أشار الرجل إلى الأطفال فانطلقوا داخل عشته وأخرجوا حصائر وفردوها فجلس وقال لطارق:

"تفضل بالجلوس."

اعتدل طارق في جلسته، وأعاد تعريف نفسه والجريدة، وسبب الزيارة وطرح أسئلته. أجابه الرجل بفتور بلغة خاصة لكن واضحة. كلامه بطيء إلى حدٍّ ما لكنه منظم. لمع خاتم الخطوبة الذهبي في يد طارق فنبه الرجل قليلاً من إجاباته الرتيبة وانعكس على عينيه الخابيتين، فبرقت بعض الحياة فيهما، فقال الدكتور:

"كم عمرك؟"

تأمله طارق محاولاً أن يتعدى الملامح المغلقة أمامه، لمعرفة عمر هذا الرجل. خمسون/ ستون. مبهم العمر.

بدا طارق مترددًا في الإجابة. فأعاد الرجل السؤال ولكن بنبرة أكثر حيوية مغلفة بسخرية التعالي:

"بطريقة أخرى. متى تخرجت؟ أَوَلَمْ تتخرج؟. هه؟"

رد طارق:

"أربعة وعشرون."

فقال:

"كنت في مثل عمرك عندما تخرجت أنا أيضًا."

فكر طارق: من مدرسة الحياة.

فأكمل الرجل:

"لا. من كلية الطب."

ابتسم طارق ولم يجد جدوى في الاستمرار في الحديث فاستأذن وهو يفكر في المقال الذي سيكتب. سار بجانبه رهط الصبية المتناثر، قال له صبي في الحادية عشر من العمر عندما تبعه إلى السيارة:

"أنا صبي ميكانيكي في الحضرة. اليوم راحة. أي خدمة يا أستاذ."

فسأله طارق:

"وماذا يعمل الآخرون؟"

فنظر الصبي تجاه الهضبة والعشش ثم قال:

"أي شيء وكل شيء؟"

فقال طارق:

"والدكتور؟ أيعمل؟"

"أمي تقول أنه دكتور بحق ولكنه ترك المهنة."

ربت طارق على كتفه وأخرج بعض النقود غير أن الصبي أبى بصدق أن يأخذها وقال:

"أخدمك في سيارتك إن أردت."

"أشكرك. على العموم أنا سأمر عدة مرات وربما احتجت إليك" ضحك الصبي وانفلت جاريًا فجأة في اتجاه العشش.

وعلى المكتب في منزله، بدأ في كتابة الهيكل العام للمقالة. ظلت تراوده صورة الدكتور وهو يسأله عن عمره. يعرف أن وراء كل إنسان حكاية، وبسبب عادية هذا القانون لم يكن ليهتم بالدكتور. فوراء كل إنسان حكاية وقصة حقيقية أو موهومة ولقد سئم هو شكل هذه الحكايات المنتشرة في كل الجرائد. لكنه يشعر أنه مرتبط بشكل ما بهذا الصعلوك المتشرد، مثله كثيرون في كل مكان. لكن من منا يهرب من مصيره؟

ألحت على طارق حالة من التوتر منذ أن رأى هذا الرجل. فوجد نفسه مدفوعًا في اليوم التالي لمقابلته مرة أخرى.

بادره الرجل:

"شيء ناقص؟"

"لا."

يُحار. ماذا يريد من الحديث معه؟ أو بالأصح ماذا يريد أصلاً؟ لم يكن طارق شاهين متأكدًا أنه يريد أن يستمع إلى قصة هذا الرجل ولكنه لم يستطع الانصراف أيضًا. إنه يعيش حياته على هامش الحياة أو ما يسميه الآخرون حياتهم، له قوانينه الخاصة ولكنها لا تتعارض مع القوانين العامة، فقط تلامسها ولا تتعداها أو تتقاطع معها. كأنه يعيش على طرف الهاوية دائمًا. لا انغماس أو سقوط. يقلقه لأنه شكل من الحياة ينسى وجوده عندما يختفي ولكنه يعييه عندما يتواجد. ظل أمامه لا يستطيع أن يتخذ أي قرار.

حل له الرجل المشكلة. دعاه للجلوس بجانبه على الحصيرة، في ظل الشجرة التي تطل عليهما من سور المقابر وقال له:

"نعم. ما من إنسان إلا وراءه حكاية. أنت تود أن تعرف."

صمت طارق ولم يجب. ظل الرجل ساكنًا لفترة ثم قال:

"لقد أضعتُ من أحب إلى الأبد."

ثم أكمل إغلاق العالم على نفسه بإحكام.

"أي ألم هذا الذي يدفعنا إلى الحب بجنون؟؟ أي عاطفة تشوي أرواحنا وتُجدد جمارًا لا تنتهي؟"

ومن حديثه لنفسه بدأ طارق شاهين جمع شتات الحكاية.

الإسكندرية نوفمبر 1976

انتهت محاضرة الكيمياء الحيوية في مدرج القرود الذي توارثت اسمه الدفعة الجديدة من الدفعات السابقة. كان هاشم الصادق ما زال محتفظًا كعادته بالجلوس في آخر صف وحيدًا لوصوله متأخرًا دائمًا، فبداية العام الدراسي لأولى طب لم تغير من عاداته في إعدادي طب الذي تلقاه في مبنى كلية العلوم في الشاطبي. شاردًا طوال المحاضرات، لو سئل فيم كان شروده ما تذكر، معلقًا بين عوالم خفية أو حقيقية تتوالى عليه إلى أن تبدأ حركة الطلاب حوله مؤذنة بانتهاء المحاضرات.

يرى في غيام الوجود حوله وجه صديقه إسماعيل راشد مشيرًا إليه. انتظره حتى اقترب منه وضحك ضحكته المميزة الشهيرة ثم قدم له صديقًا جديدًا.. أيمن فرج. ابتسم أيمن لهاشم ابتسامة بشوشة أبرزت جماله الشعبي، بسماره المحمر وذقنه المستديرة البارزة وعينيه المكحلتين، حياه هاشم بابتسامة فوضع أيمن ساعده حول كتفه محتضنًا إياه. حميمة أثارت استغراب هاشم المنغلق في عالمه، إلا ان الابتسامة البشوش ألفت في لحظة بين روحيهما، وقبل أن يخرجا من ظلمة المدرج إلى الشمس الساطعة، اعتبرا نفسيهما صديقين رغم لحية أيمن فرج التي تؤكد انتماءه إلى الجماعات الإسلامية التي بدأت تغزو المجتمع، ونفور هاشم الصادق منها في المدرسة الثانوية وإعدادي الكلية.

أدهش أيمن هاشم بقوله أنه يعرفه منذ زمن حيث إنهما جيران في نفس الحي، وتعجب هاشم عندما أخبره أيمن بنوع سيارة أبيه ورقمها.

"لقد رأيتك مرات عديدة بالسيارة بجوار والدك ذاهبًا إلى المدرسة الثانوية."

بالنسبة لشخص شارد مثل هاشم، كانت المعلومات التي يعرفها أيمن عنه تدهشه بشدة لما فيها من دقة ومتابعة لا يظن أنها تتواجد في العالم. بداية علاقة عجيبة، اشتعلت فجأة كأنها لم تكن في حاجة إلا لتلك اللمسة التي أججتها. صداقة ولدت من وهج الشمس التي احتوتهما عندما ولجا من باب المدرج، تسطع يوميًا بلا جدال لكنها مجنونة الأحوال، فمن قيظ حارق خانق للأرواح إلى نور دافئ يمس القلب وشغافه أو لضوء بارد يمثل الحقائق وثقلها. قد تختبئ خلف غيوم تمحو وجودا مؤقتا أو وراء رباب يغرينا بالتطلع إليها وانتظارها.. يتلامسان حتى اليقين ثم فجأة يتناشبان بجنون حتى الموت. وقد تتقاطع هذه المشاهد في يوم واحد أو في سنة...

* * *

يقفان متجاورين، يلقي كل منهما بكل ثقل جسده على كتف الآخر، أمام أكشاك الأسنان في منتصف ساحة الكلية، ينتظران في مرح متواطئ. يقول أيمن لهاشم:

"انتظر وسترى. إنها في غاية الجمال."

"حقًا!"

"الجمال الذي يعجبنا."

فقال هاشم وهو يضحك:

"أي أنها لن تعجب إسماعيل على الإطلاق. ولو رآها لأشبعنا سخرية. سيقول مالكما تعشقان التماثيل."

فأكمل أيمن ضحكة هاشم وتعليقه:

"ويا لها من سخرية عنيفة. لذلك لم أقل له عليها."

ثم أوضح وكأنه يذيع سرًا:

"تحريتُ حتى عرفت من هي..."

"كعادتك."

"اسمع يا سيدي. اسمها نرفانا من ثانية صيدلة وأبوها يعمل... ها هي ها هي. انظر إليها وسط الخارجين من مدرج التشريح."

تتهادى نرفانا بجمالها بين زملائها منحدرين إلى مبنى كلية الصيدلة. شعر أسود فاحم حتى كتفيها، عينان خضراوان حجريتان، ووجه يشعر بانفراده، وقد دقيق يحمي نفسه من العالم.

بقيا يراقباها حتى اختفت خارج الكلية في ميدان الخرطوم.

"هه. قل لي ما رأيك؟"

فقال هاشم مأخوذًا:

"إنها ربة الجمال."

وما أن يُتلفظ بهذه الكلمات، حتى يتغير أيمن تمامًا

"إنك كافر."

فينتفض هاشم داخليًا، فهو يكره الاتهامات والكفر. يكمل أيمن:

"لا يوجد رب إلا الله. يجب ألا تستعمل هذه الكلمة. قراءاتك الكثيرة ستهلكك."

أول ما فكر فيه هاشم هو الدفاع عن القراءة التي يعشقها:

"ألم يقل الرسول اطلبوا العلم ولو في الصين؟"

فيقول أيمن ساخرًا:

"أتظن أن أي علم مفيد؟ العلم هو العلوم الدينية فقط. وهي المطلوبة."

يفكر هاشم لماذا أنت إذن في كلية الطب، غير أنه قبل أن ينطق بهذا يقول:

"وهل توجد علوم دينية إسلامية في الصين؟"

فيقول أيمن مغتاظًا:

"لا أعلم ولكن هكذا قال الرسول."

"هذا ما تظنه أنت وجماعتك الغبية."

يتنمران لبعضهما لوصولهما لنقطة الخلاف الأساسية. الجماعة الإسلامية.

يستعيد هاشم جمال نرفانا. ما المانع أن نقول ربة الجمال فيقول لأيمن المكفهر الوجه بجانبه:

"انتظر. ألا نقول (رب البيت)، ألا يوجد مثل (إذا كان رب البيت بالدف ضاربًا..)، ألا يوجد في الراديو برنامج (إلى ربات البيوت)، ما الكفر في هذا؟ ثم إن كلمة رب تعني صاحب... رب البيت يعني صاحب البيت."

كلام هاشم عقلاني ومقبول، وأيمن يتقبله مهزومًا لأنه صحيح، إلا أنه لا يستريح له. إنه حر أكثر من اللازم، هذا ما يضايقه في علاقته بهاشم، عندما يكون مع الجماعة لا تخرج الكلمات عن المألوف. رغم أن هاشم أثبت له عادية هذه الكلمة، سيرجع للجماعة ليعرف.

* * *

يسلمان وهما متجاوران في صلاة الجمعة في جامع الشاطبي الذي يصلون به لقربه من منزل إسماعيل راشد صديقهما. يتبادلان الدعاء:

"حرمًا."

"جمعًا."

ثم يبحثان عن صديقهما إسماعيل ويتبادلون التحية. يبدأون مسيرتهم الأسبوعية على الكورنيش في الجو الصافي لشتاء الإسكندرية وشمسه الدافئة. قال أيمن بصدق وفرح لهاشم:

"إنني سعيد جدًا لأنك بدأت تنتظم في الصلاة."

"فضل منك أنت وإسماعيل."

فقال إسماعيل:

"ألم تقل لي إنك كنت تصلي بانتظام من قبل؟"

"هذا صحيح. حتى السنن كنت أؤديها، ثم شعرت أني غير صادق في هذا. وأنني أؤدي عادة وليس صلاة فتوقفت عنها."

فقال أيمن:

"لا يهم حتى وإن تكن عادة."

فرد هاشم:

"لا يا أيمن. أنا رجعت للصلاة لأني أحببتها من جديد. أشعر أنني أحب أن أصلي، أن أشكر الله."

فقال إسماعيل:

"هذا هو المهم حقًا."

يقطع أيمن الحديث قائلاً:

"هيا بنا نعبر الكورنيش، لنكمل بجوار البحر."

بدأوا في العبور فأكمل هاشم حديثه:

"إن الصلاة يا أيمن يجب أن تكون ميعادًا مع الحبيب. كأنك ذاهب إلى البنت التي تعشقها. يجب أن تكون متشوقًا لهذا الموعد. لا أن تكون مجرد عادة للقاء."

كانوا قد عبروا نصف الكورنيش واقتربوا من الخط الطولي الذي يفصل بين حارتي الذهاب والإياب التي عبروها توًا. كان هاشم منفعلاً بما يقول فرفع عينه عن الخط الفاصل إلى الأفق فجأة وكأنه لم يتوقع أن يراه بكل هذا الجمال الساحر، غابت كل الأشياء وكعادته لم يعد "هنا". كل ما يذكره ووعاه بعد هذا، صوت نفير سيارة يتعالى وصوت أيمن صارخًا "هاشم"

وجسده وهو يُقبض عليه ويُجذب للخلف ولون أحمر معدني يكاد يلامسه وهو يمرق متخطيًا إياه.

قال إسماعيل:

"شردتَ كعادتك"

ضحك هاشم وقال:

"عندما رفعت رأسي ورأيت البحر نسيت كل شيء."

فقال أيمن وهو ما زال قابضًا على ساعده بشدة:

"أجننت؟ كنت ستموت."

فأحس هاشم أن عليه أن يطمئنه لسبب مجهول:

"لقد أنقذتني."

فقال أيمن:

"نعم لقد أنقذت حياتك."

فبادرهما إسماعيل:

"هلما نكمل هذا العبور الأسود."

أكملوا عبورهم وساروا على الكورنيش بمحاذاة البحر الذي أرجع إليهم الطمأنينة والمرح. تناقش إسماعيل وهاشم عن الفيلم الذي رأياه أمس في سينما مترو، أما أيمن فكان يلاحظ السيارات التي تمر على الكورنيش ويعلق عليها وعلى سائقيها بالذات البنات منهم.

"ألم ترى هذه؟ إنها رائعة."

فقال إسماعيل:

"عجبًا منك يا أخي. نحن توًا صلينا وأنت لا تغض البصر على الإطلاق."

فقال هاشم مدافعًا عن أيمن، رغم تعجبه الدائم من تضاد أيمن الواضح:

"يا إسماعيل... إن الله جميل يحب الجمال."

ثم التفت إلى أيمن وأكمل:

"لكن هذا عكس أفكار جماعتك بصراحة."

انفعل أيمن قائلاً:

"لا تظن لأني حلقت لحيتي بعد أن أقنعتموني أنها مجرد هيئة وليس لها جذر في أصول الدين، أنني سأقطع علاقتي بهم."

فقال هاشم:

"وهل طلبنا منك هذا أبدًا؟ أنت حر فيما تفعل. أنت الذي يطلب مني دائمًا أشكالاً وآراءً لا أوافقها وتحزن إذا لم أتبعها."

"إنهم إخوتي في الله، وآراؤهم صادقة."

"بالنسبة لي لا توافق العقل. كما أعتقد أنها لا توافق لب الدين الجميل."

"ومن أنت حتى تفهم في الدين أو تدلي برأيك فيه."

"على الأقل أحاول. فأنا أقرأ كي أتعلم ولا آخذ أفكاري من أمراء ولا شيوخ. لي عقل أهدانيه الله وهذا يكفيني."

"عقلك سيجحمك."

أغاظه

"سأكون راضيًا حينئذ."

أكمل إسماعيل سيره وهو يقول يائسًا ولكن بضحك:

"لن ننتهي أبدًا."

* * *

ممددان متواجهان على فراش أيمن، كلٌّ ممسك بكتاب تحت شعار المذاكرة، يتناوبان قص ذكرياتهما الغضة الساذجة. يكمل أيمن:

"أما جارتنا فعرفتها في البحر. بعض القبلات، كنا في ثانية ثانوي. أشرت إليها ودخلنا معًا في لج البحر، تبادلنا القبلات واللمسات الخاصة."

يشرد هاشم ويقول لأيمن:

"أتعرف. أنا لا أحب الجنس، إنه مثل الشوكولاته ممتع طوال الممارسة، لكنه دائمًا ما يترك طعم المرارة في النهاية."

"الجنس مثل كل شيء أباحه الله."

"بطريقتك هذه؟."

"لا. أنا لم أكن قد دخلت الجماعة بعد."

تململ هاشم وأكمل:

"لنترك جماعتك الآن. أنا أقصد شيئًا مختلفًا.."

"مثله مثل الأكل."

"لا. كل شيء من الممكن الوضوء بعده، لكن الجنس، عليك أن تقابل الله بالاغتسال أولاً حتى ولو كان في الحلال."

"لا تعقد الأمور."

"ألم يكن من الأولى أن يتكامل الحب بشيء مختلف حتى يتم سموه؟"

ضحك أيمن وعلق:

"وكيف نتناسل؟ أكون ماشيًا ثم أنشق مثل الأميبا، وأجد واحدًا آخرًا يشبهني ويقال لي هذا ابنك؟"

فضحك هاشم وقال:

"بلا سحف."

ثم أكمل جادًا:

"لا. أقصد شيئًا لا ننجس به."

"بالله عليك، أفكارك ستؤدي بك. ثم أن هذا الفكر ليس إسلاميًا، الجنس معلم أساسي في حياة المسلم طالما كان حلالاً، أربع يا سيدي غير ما ملكت أيماننا."

سكت هاشم وهو ينظر إليه بوجه يكمل معنى حيرته.

الإسكندرية أكتوبر 1980

تستلقي سارة بجسدها الفارع على فراشها تضع كتابًا أمامها على المخدة وتسند رأسها بيدها اليمنى. أدارت رأسها قائلة:

"اسمع

وكـــــلٌ مظهـــــرٌ للنـــــاسِ بغضًـــــا

وكـــــلٌ عنــــدَ صـــــاحبه مكـــــين

تخـــــبّرُنا العيـــــون بمـــــا أردنا

وفي القلبـــــين ثم هـــــوى دفـــــين"

ثم أضافت ضاحكة:

"أتتذكر من قائل هذا البيت؟"

شعرت بشفتيه وقبلة ناعمة على ظهرها ثم نبرة صوته الحانية وهو يقول:

"وهل أستطيع أن أنسى؟؟"

في بداية علاقتهما في جلسة كبيرة للأصدقاء في فيلا العجمي عند صفية يونس، يتكلمون عن شريط أندلسيات لفيروز، الذي استمعوا مؤخرًا إليه، وتبادلوا التعليق على الأبيات وجمال صوت فيروز وتشعب الحديث عن الحب والشعر وتبادلوا معلوماتهم الشعرية المستقاه من أبيات الشعر التي حفظت من أيام المدرسة أو التي يغنيها فيروز وأم كلثوم وعبد الحليم. عندما أنشد هذان البيتان قال هاشم إنها أبيات لمجنون ليلى، غير أن سارة عارضته:

"بل هما لليلى نفسها."

لم يكن أحد من الآخرين يعرف، ورغم أن العلاقة لم تكن قد توطدت بينهما وكان لا يزال الحياء والمجاملات البسيطة تغلفها، إلا أن كل منهما تمسك برأيه بعناد أدهش الباقين، حتى اقترحت صفية وهي تطلق ضحكاتها العالية المتقطعة، أن عليهم جميعًا المراهنة وعلى كل واحد أن يدفع جنيهًا كاملاً لها بلا نقصان ولو اتضح أن البيت ليس للمجنون ولا ليلى فستأخذ هي النقود حلالاً.

اشتعلت فكرة المراهنة بمرح صفية وتظاهر كل منهم بأنه يعطيها جنيهًا. فسألت وداد، ولكن من أين سنعرف؟

فقال هاشم وهو ما زال ينظر إلى سارة:

"من المجنون نفسه."

قبل هاشم ظهر سارة مرة أخرى برقة عدة قبلات على سلسلة ظهرها من أعلى إلى أسفل، ثم همس:

"من يستطيع أن يتحداكِ أيتها الباهرة؟"

أحست سارة بثقل رأسه على ظهرها العاري وبانضمام ثدييها وانسحاقهما بين ساعدها الأيمن وجسدها على الفراش. وعاودت القراءة إلا أن وجه هاشم الملاصق لجسدها بدا لها على صفحات الكتاب. هذا الوجه الطفولي الذي يتراءى لها ببياضه وحمرته الموراة، حاجباه الكثيفان وعبسته الجميلة التي تعطي الانطباع بالسخط الصبياني الدائم وحرونه. الوجه الذي يبوح بكل شيء بلا تعالٍ، الذي يشف عن روح تكاد تنبثق من تلك العيون اللامعة الشهدية، خصلة الشعر الأسود التي تتدلى من الجانب الأيمن على الوجه، جسده الصغير الذي يؤكد انطباع الطفولة، رغم أنه في نفس طولها.

تتعجب سارة من نفسها وتتساءل: كيف؟ ولماذا؟ أنا التي أنتظر حفلات التحطيب بوله حقيقي وأرى الصعايدة المادة الأولى الخام للرجولة في العالم، أنا التي أغوى تمتع بصري بالنظر إلى تماثيل الفراعنة ومقارنتها بالمراكبية في أسوان والأقصر بسمار بشرتهم ولمعانها وعيونهم اللاهبة الحانية وأجسادهم المتجبرة المنحوتة النحاسية وأرواحهم شديدة البأس. جباههم الشامخة وشواربهم المرعبة وفي حفلات التحطيب أحرص على الجلوس في أول صف منبهرة لرقصهم الرجولي وعنفوانه وإمساكهم بهراواتهم . كيف أحب هذا الولد الأقرب للغلمان. ليس لفارق السن بيننا أهمية بالنسبة لي، ربما يمر بباله هو في بعض الأحيان؟ كم عمره الآن؟.... آه، تلك النظرة المشرقة التي تقف على حدود الرجولة، وجسده الذي يوحي برقة ناعمة. أي تضاد يا سارة؟؟! خبثه المفضوح الساذج المتطلع والمتطلب والرغبة الرجولية البازغة التي تتملكه في بعض الأحيان. أي روح هفهافة في تماس معك يا سارة؟ وأي جسد صبياني فوار.

ترجع لعالمها الحميم. تهمل الكتاب وتضعه جانبًا. تشعر أنها جبال عملاقة يتسلقها طفل مشاغب، مملوء باندفاعات متأججة، مبهور باكتشافاته.. أنامله تلامسها برقة متهادية على تموجات

جسدها. أي حنان تشعره تجاهه، وديعًا بعد مشاغبة ينام طائعًا في كنفها. تململ قليلاً. فتقلبت واستلقت على ظهرها فوضع رأسه على صدرها وتتابعت زفراته الهادئة الدافئة بين ثدييها، وانهدل شعره الطويل على كتفها. أحاط خصرها بذراعه متشبثًا بها أكثر. وببطء تماثل تنفسهما حتى غرقا في نوم هانئ.

أفاق هاشم على رنين الهاتف. قام متثاقلاً كالطفل المنتزع من حضن أمه ليذهب إلى المدرسة. تململت سارة وفتحت عينيها وابتسمت بخمول وهو يبتعد عنها ليرد على الهاتف. أتاه صوت هدى يونس:

"أهلاً هدى."

"كيف حالك يا هاشم؟"

"الحمد لله. كيف حال أحمد والأولاد؟."

"بخير."

توقف بينهما الكلام للحيظات تكشف موقفهما. ثم بادر هاشم الكلام:

"سارة نائمة. أتريدين أن أوقظها؟."

"لا. كنت فقط أريد أن أطمئن عليها."

ثم استدركت ملاحقة:

"عليكما."

"نحن بخير. قبّلي لي التوأمين."

"حاضر. على فكرة صفية تقول لك لا تنس المذاكرة والامتحانات."

ثم أضافت ضاحكة:

"تقول لك لا تغرق في العسل."

"هذه اللئيمة، لا تبرح الكتاب أبدًا. لترحم نفسها قليلاً. سأتصل بها وأقول لها أنها تغير عليّ. على زميلها المحترم. لنر من سيأتي بالدرجة الأعلى."

"لكنها نصيحة مني أيضًا."

"أنت أعلم أن سارة عسل مغرٍ. إذا ما ذقت منها ما سلوتها قط"

فتنهدت هدى قائلة:

"يا للسارة!"

فأمن هاشم على قولها:

"نعم. يا للسارة!"

أطلت مرة أخرى لحظات الصمت المحرجة، الجارحة لهما بلا سبب، فتقطعها هدى هذه المرة:

"قبلها لي"

فأجاب هاشم ضاحكًا مستعيدًا للحظة بساطة علاقته مع هدى:

"أمرك مطاع طبعًا. طالما أمرت بالقبل، فالسمع والطاعة يا سيدتي."

فاستجابت بضحكة لمرحه الطبيعي الذي استُرجع:

"آمرك أن تذاكر."

فهمهم مبديًا استنكارًا.

"قلت ذاكر."

"حاضر."

"والآن سلام."

"سلام."

وضع هاشم السماعة وهو يفكر في هدى صديقة سارة المقربة وأخت زميلته صفية. مرت على باله الأصياف السابقة وعطلات نهاية الأسبوع في أوقات الدراسة. تلك الرحلات الجماعية التي تجمع بين شلتي صفية يونس وشلة أختها الكبيرة هدى. تباينت الرحلات من فيلا أهل هدى وصفية في الهانوفيل أو فيلا أهل عمرو في البيطاش، أو كابينة المنتزه عند إسماعيل، أو حتى في البحر الميت في أبي قير. أو رمال المعمورة، ونادرًا الرست هاوس في الكينجي.

كان أيمن يهمس في أذن إسماعيل: نحن عيال بالنسبة إليهم. إنهم كبار جدًا. رجال وسيدات. معلقًا على شلة بكالوريوس المسماة بينهم "هدى وأخوتها". فيكمل إسماعيل التعلق: فعلاً نحن أطفال بالنسبة إليهم. فرغم هذا الشعور الخفي بين الشلتين بين استعيال "صفية وأخوتها" وبين السخرية من الكبار "هدى وأخوتها"، فقد كان انفلات الشباب وجنونه يجمعهم كلهم بأجساد تتفتح وعقول تتصارع.

رجع هاشم إلى الفراش وجلس بجوار سارة يتأمل وجهها الصبوح وهو يفكر فيما قالته له هدى على الهاتف. تشعر هدى دائمًا أنها السبب في معرفتهما ببعضهما البعض، وكأن كونها أخت صفية وخروج المجموعتين سويًا منذ سنوات هو ما جعل الأقدار تتلاقى. رغم سعة أفقها ورشدها إلا

أنها نمطية جدًا في تصرفاتها وترى العجب في علاقتهما. وكم تساءل هاشم مستغربًا من صداقة سارة بهدى ولكن لحظتها يتذكر صداقته لأيمن واختلافهما الواضح والبين.

أزاح خصلة شعر عن جبين سارة فبدا وجهها أكثر إشراقًا رغم خلوه من التجميل والمساحيق. تذكر أول مرة رآها بوجه مغسول هكذا.

أتاه صوت صفية وهي تقول باكية:

"علينا أن نذهب لنعزي سارة."

فقال لها:

"سارة من؟"

"سارة حفني – صديقة هدى أختي – لم يكن لها سوى والدتها."

ثم نشجت وهي تترحم عليها. فقال متأثرًا:

"رحمها الله."

وقتئذ لم يكن قد رأى سارة سوى مرتين في فيلا الهانوفيل، منطوية داخل مجموعتها صامتة معظم الوقت.

ثم سأل صفية:

"ألهذا لم تكن تتحدث كثيرًا. هل كانت أمها مريضة؟"

"لا أعرف. لم أسأل هدى."

ثم أضافت

"لقد اتفقت كل الشلة على زيارتها الليلة. هل ستأتي معنا؟"

فاندفع قائلاً:

"بالطبع."

"إذن اتفقنا."

كان هذا أول عزاء يقدمه في حياته. اتفق مع أيمن وإسماعيل وعمرو على الذهاب معًا ولبس البدلات ولكنهم لم يجدوا ربطات عنق سوداء. سأل أيمن وهم يقتربون من العنوان الذي أعطتهم صفية:

"أين الشادر؟"

فقال إسماعيل:

"يبدو أن العزاء في الشقة من الداخل."

صعدوا إلى الدور الثالث ووجدوا بابًا مفتوحًا والوجوه كلها معروفة من الشلتين وقلائل آخرين. جلسوا متجاورين، مرتبكين حتى بدءوا يميزون آيات سورة الرحمن وهي تتلى من مسجل موضوع في البهو. تابع أيمن الآيات التي يكاد يحفظها لكثرة ترديده على المسجد، أما هاشم فالنغم الجميل وحلاوة الكلمات كادت أن تعصف بروحه فلم يدر ماذا انتابه. طفقت الدموع تنهمر من عينيه دون كلام وكلما سمع آية {فبأي آلاء ربكما تكذبان} تُكرر يفقد السيطرة على نفسه ويزداد ألمه المبهم. يحتضنه إسماعيل ويهمس في أذنه:

"بالله عليك يا هاشم."

فيجيبه من نشيجه:

"أنا آسف. أنا لا أعرف لماذا أبكي."

"اهدأ، يا هاشم. وحد الله."

يهدأ قليلاً بكلام إسماعيل واحتوائه له. يخرج أيمن منديله القطني ويعطيه له ليمسح دموعه وليتمخط. ينظر إليه هاشم وهو يبتسم شاكرًا بين دموعه ثم تتسع ابتسامته عندما ينظر مرة أخرى لأيمن الذي يغمز له مشيرًا إلى هدى التي أتت خارجة من الممر الطويل واتجهت إلى إسماعيل مقتربة خطوة خطوة. يعرف أيمن وهاشم أن إسماعيل يهاب هدى لعدة أسباب، منها أنها أكبر منهم كلهم ولطريقتها الجادة وتعليقاتها الساخرة، فكادت هذه الغمزة الخاطفة من أيمن لهاشم الذي فهم معناها، أن تضحكه، وهو يرى نظرة الذعر التي تتكون على وجه إسماعيل كلما اقتربت هدى. دنت هدى من خد إسماعيل حتى ظن أنها ستقبله، غير أنها همست في أذنه بشيء لم يسمعه الآخرون. وما إن اختفت في الممر مرة أخرى حتى تساءل عمرو وأيمن عما قالته. فقال إسماعيل وهو يكبت ضحكة واضحة على محياه:

"ظننت أنها ستقبلني."

فبدءوا يضحكون بصمت دون أن يشعر بهم أحد، ثم تمالكوا أنفسهم وأخبرهم إسماعيل بأنها قالت أن سارة لن تستطيع أن تخرج إليهم إذا شاءوا دخلوا هم إليها غرفة نومها بعد قليل. فقال أيمن:

"طبعًا لابد أن نعزيها وجهًا لوجه."

فقال هاشم:

"فلنستأذن من صفية عندما ترجع إلينا."

تأملوا الصور المعلقة في غرفة الصالون المجاورة. صورة قديمة لزفاف لابد أن تكون لوالدي سارة. وصورة حديثة لسيدة، والدة سارة وهي متقدمة في العمر تضع طرحة مخملية سوداء تكاد تخفي شعرها. قال هاشم:

"هذه أمها. أليس كذلك؟"

رد عمرو:

"أظن هذا واضحًا من الشبه بينهما."

"لكنها تذكرني بشخص آخر. لا أستطيع أن أضع يدي عليه."

فقال إسماعيل:

"لا. هذا بسبب الشبه بينهما."

فقال أيمن مغتاظًا:

"كأنك رأيت سارة مليون مرة من قبل. ألم نرها مرتين فقط؟"

فعقب هاشم:

"وكانت متباعدة معظم الوقت. ولم تتكلم معنا."

فقال عمرو:

"على الأرجح بسبب مرض والدتها. فلقد أخبرتني وداد بهذا."

فسخر أيمن:

"نعم يا سيدي. طبعًا. لابد أن يعرف كل شيء من وداد."

وقبل أن يرد عمرو، أتت صفية، وقالت:

"فلتتفضلوا"

انتابهم وجل وخجل وتراصوا كالطابور، وساروا خلف صفية في الممر إلى غرفة سارة. ألقوا بكلمات العزاء بسرعة مهمهمين ثم جلسوا عدا عمرو الذي ظل واقفًا لعدة دقائق، ثم استأذنوا وتقريبًا لاذوا بالفرار من المنزل كله.

"يا إلاهي. مر أربع سنوات على هذا الحدث، منذ أن رأيتها في فراشها هادئة مستكينة وحزينة." هكذا فكر هاشم وهو يكمل إزاحة خصلة الشعر عن الوجه الذي يحبه بشكل يكاد يفتك به.

همس دون إرادة منه وكأنه يعزيها في تلك اللحظة البعيدة:

"أحبيبتي."

فتحت عينيها بكسل ولكن سرعان ما انتبهت، وقالت بجزع:

"لماذا أنت حزين هكذا؟"

حاول أن يسترد نفسه من ذكريات ذلك اليوم الموجعة:

"لا شيء."

"ولكنك تبدو حزينًا."

نعم. هو حزين جدًا. لكنه يعرف الآن لماذا، أو ربما لا يعرف أبدًا. هل الحب يسبب رغم روعته كل هذا الحزن غير المفهوم، غير القابل للنقاش، والذي لا يستطيع المرء أن يتعايش معه.

"لا طبعًا. أنا سعيد بكِ."

أبعدت رأسها قليلاً وهي تتوجس شيئًا مبهمًا وكأنه ينذر بالشر.

"من كان على الهاتف؟"

قلبها على جبينها وقال:

"حبيبتي! لا تنزعجي. كانت هدى. تهديك السلام."

"و......"

"وأمرتني بالمذاكرة وعدم الخمول."

اقترب منها وعانقها، فتركت له نفسها لدقائق، ثم قالت:

"كفى يا هاشم. هلم. ألا تحبني؟"

أكمل قبلاته وهو يغمغم:

"بلى. بلا جدال."

"إذن إلى الحرب!"

هكذا كانا يسميان بكالوريوس الطب والجراحة.

فلسطين أورشليم إبريل 1948

انحشرت سميحة إبراهيم ليفي في السيارة التاركة أورشليم والمتجهة جنوبًا إلى حبرون، حقيبتها الوحيدة على مؤخرة السيارة. تفكر في يوسف، لن يخمن أنها اتخذت هذا الطريق، سيظن أنها اتجهت غربًا إلى المتوسط لزيارة صديقتها نينات في يافا، لن يتخيل أبدًا أنها عائدة إلى مصر.

منذ دقائق عبرت من باب صهيون حاملة تلك الحقيبة الثقيلة التي تحوي الآن كل حياتها السابقة. وقبل أن تصعد إلى السيارة ألقت نظرة أخيرة على أورشليم وهمهمت بأسى غامر: يسمونها مدينة السلام. أي سلام! أي سلام تتفتح تحته أنهار من دم. يقولون قاتلة الأنبياء. فلسطين كلها تتحول إلى بركة دم لن تجف.

اهتزت السيارة على الطريق فرفعت عينيها فرأت شجيرات الزيتون المتناثرة إلى حد البصر. زاد ألمها لوجود هذه الشجيرات الآمنة التي تراقصها الريح الشمالية. كانت تراقصهما معًا. يوسف وإفراييم. رن صوت ضحكاتهم في أذنها، فابتسمت مغصوبة، وتساءلت هل كان هذا في روش هاشناه أم في عيد البصح أو بوريم القاهرة. الأحداث الماضية كادت تقضي عليها وعلى تماسكها. صممت على التذكر. لم يكن بوريم القاهرة لأننا لم نقم بصيام إستر، ثم تتابعت الصور... قصر عائلة شلزنجر في محرم بك، عدم رغبة إفراييم الذهاب إلى الحفل لكرهه للنشاط الصهيوني الذي يقوم به الرّبانيون ومنهم أصحاب القصر، غير أن إلحاح يوسف غير المفهوم وقتئذ لم يترك لسميحة أو إفراييم أي خيار.

أين تلك الضحكات الصافية؟ أين أخوها الجميل يوسف؟ هل من تفر منه الآن هو الأخ الحاني الذي كانت تعرف؟ ها هي النظرة المنغرسة فيه منذ زمن تؤتي بثمارها الخبيثة. تجرأ وسب أبي جهارًا. أي قوانين تُقلب في هذا البلد القاتل؟ أهي أرض الرب حقًا؟ هل هي الوعد. كل شيء سيذهب بلا عودة.

ثلاث سنوات فقط منذ أن رحلت من مصر، وها هي تفقد الثلاثة، أباها ويوسف وإفراييم. يدفن أبوها كما أراد في فلسطين. كان يريد أن ينهي حياته في قلب أرض إلاهه. لكنه لم يكن يدرك أنه لن يستطيع أن يحتمل كل هذه الكراهية حوله. انتهت حياته كما أراد لها أن تنتهي ولكنه لم يعشها، قضى عليه يوسف بتصريحه بانضمامه لهم. لم يحتمل التحول الذي اعترى ابنه المحبوب. رآه

يحمل الرشاش ويتحول إلى قاتل حقيقي. قاتل باسم الرب. كثيرًا ما سأل نفسه عن سبب تحول يوسف إليهم. وهو الذي رباه على مبادئ الحق والحب. فترد سميحة عليه حانقة ومشفقة في ذات الوقت:

"لا تلم نفسك. لم يعد صغيرًا، وهذا اختياره."

فيحتد فتنتابه نوبة سعال حادة:

"يختار أن يصبح قاتلاً؟"

"يدافع عن حلمه."

"بل حلمهم الذي سيشعل جهنم أبدية هنا."

ها هي جهنم بدأ سعيرها في التأجج.

تابعت سميحة السيارات التي تسير في الاتجاه المعاكس والجنود الإنجليز المنتشرين حولهم. عندما هاجروا إلى فلسطين لم تكن تتوقع أن ترى أفراييم مرة أخرى، رغم وعوده لها وأحلامه الخيالية.

"ما معنى أن أترك مصر. إنها بلدي."

"أنا مجبرة كما تعرف."

"ابقى معي يا سميحة. فلنتزوج هنا. دعيهما يرحلان وحدهما."

"رغم أن قصد كل منهما مختلف في الرحيل فعليّ الذهاب. لا أستطيع أن أترك أبي الآن. وهو لحبه ليوسف يطاوعه مجبرًا، كما يداعبه حلمه في إنهاء حياته في فلسطين."

"أبوك يظن أنه سيجد أرض سلام. ألا تدركين ما يحدث في كل العالم؟"

"نعم. أعرف... ولكن...."

ليتها لم تعارضه ولكن لم يكن ليجدي هذا شيئًا، فإفراييم يفاجئهم بالحضور من مصر عبر إيطاليا إلى فلسطين هو الآخر. تتابعت خطاباته من مصر يعلنها عن محاولة إنشاء جمعية مصرية تفرق بين اليهودية كدين والصهيونية كحركة استعمارية عنصرية. امتلأت الخطابات بالمحاولات الحثيثة لجمع أكبر عدد من الأعضاء، ثم كم كانت فرحته بظهور التنظيم وسُمي "الرابطة الإسرائيلية لمكافحة الصهيونية" (أنا سعيد فصيف 46 سيُظل يُذكر في التاريخ. فسنظل نسعى لمهاجمة الصهيونية) وفي خطاب بعده أكد لها نشاط منظمة "ايسكرا" الماركسية المصرية في التنظيم. ثم خطاب آخر ويحتوي على قصاصة من جريدة صوت الأمة الوفدية بتاريخ 6 أكتوبر 46 وفيها البيان الذي كتبه سكرتير الرابطة السيد "عزرا هراري" في توضيح أهدافها النبيلة للتعريف

بالصهيونية كحركة استعمارية عنصرية. كتب يعلق على البيان إنه يؤمن تمامًا أن هذه الحركة الدنيئة ستأتي بالدمار على الديانة اليهودية ككل. وأن الهجرة وتحبيذها إلى فلسطين كارثة عالمية. ثم ينهي خطابه بجملة ظل يختم بها خطاباته اللاحقة (ليتك ما هاجرت يا حبيبتي). أرسلت تقول له أنها خائفة مما يرسله إليها من معلومات في الخطابات، فطمأنها في خطاب تالٍ (إن الرسائل التي تصلك بالبريد لا تحتوي إلا على الحديث العابر، أما التي تصلك باليد كما لاحظت فهي من أيد أمينة). ثم يمضي بحسرة يكمل (ما أكثر من يرحل إليكم، ومن يغتر بالدعاية. الصراع ينهش الكل. كشفنا في بيان يونيو 47 عن أوكار الصهيونية في مصر، واستخدامهم المدارس والأندية لجمع الأموال وتهريب اليهود إلى فلسطين، أرجو أن تساعدنا الحكومة في ذلك الأمر). وفي خطابه الأخير كتب (كارثة بحق، الحكومة جاهلة دون شك. اللعنة. وزارة الشئون الاجتماعية أبلغت الرابطة بعدم الموافقة على تكوينها لأسباب "تتعلق بالأمن". كارثة! متى سيفهم العرب أي شيء. الغباء يعم. الكارثة آتية بلا شك). ثم إضافة بخط مرتعش (لكننا لن نيأس، سنحاول مرة أخرى). انقطعت الخطابات لفترة طويلة أقلقت سميحة وأباها الذي يكن معزة خاصة لأفراييم ويحبه مثل يوسف ابنه، إلى أن فاجأهم أفراييم وهو يقف أمام بابهم، فرحته بلقائهم لم تخفف من انكساره وانسحاق روحه وتعبه.

جلس بينهما يكاد يُجن وهو يقول بأسى.

"الحكومة المصرية ألقت القبض على أعضاء اللجنة التأسيسية للرابطة ورحلتنا خارج البلاد."

فسأله إبراهيم ليفي:

"متى؟"

"منتصف الشهر الماضي."

جلست سميحة بعد أن قدمت له عصير الليمون الذي يحبه.

"ماذا فعلت؟"

"رَحلنا إلى إيطاليا، كما طلبنا. لكني لم أستطع البقاء. قاومت حتى لا آتي هنا. لكنكما هنا..."

ربت إبراهيم عليه بتفهم، فقال إفراييم وهو يعلن انهياره تمامًا:

"انتهى كل شيء."

فقال إبراهيم:

"يا ولدي. إنها أرض الأنبياء فلتسعد. هذا ما أراده الرب."

فقال وهو ينظر إلى أرض الغرفة وهو من الحزن الطاغي في حال:

"إنها إرادة شياطين الرب."

ثم أضاف مقهورًا بحزنه:

"طُردتُ من بلدي بجريرة ديني. تخلصوا منا لانتمائي السياسي والديني. رأوني كعدو. أؤمن بمفهوم خاص للرب لا يتعارض مع مبدأي السياسي."

ثم أضاف بسخرية لاذعة:

"لكن يبدو أن الرب قد تخلى عنا كما تخلى عن الجميع."

فقالت سميحة:

"إفراييم. لا تجدف. الأمل دائمًا موجود."

"نحن بين شقي رحى غشوم يا سميحة."

فأمنت على قوله وهي تتذكر أخاها.

"نعم. عندك كل الحق. انظر ما نجنيه الآن من يوسف."

قال إبراهيم ليفي:

"بالإذن يا ولدي. سأدخل لأصلي "صلاة غربيت" قبل أن تتم ظلمة الليل."

"فلتذكرنا أمام الرب."

ابتسم إبراهيم بطيبة وتركهما ودخل إلى غرفته. قالت سميحة لإفراييم، في محاولة للتسرية عنه:

"فلنخرج إلى الشرفة فالليلة مقمرة، وما أجمل ليل أورشليم."

وما أن وقفا متجاورين في الشرفة حتى أخذت في البكاء، فلم تعد تتمالك نفسها.

"لا تبكي يا سميحة."

"يوسف يا إفراييم. أبكي من أجله، من أجل كل الشباب الذين يضيعون في خرافات الحماس الديني."

ثم أضافت وكأنها تقر بذنب:

"هل تتصور أن اهتمامه الأكبر أصبح ينصب على التلمود والمشنا وليس على التوراة."

فقال إفراييم:

"كنت أخمن هذا. آه من المرويات الشفهية."

"أعتقد أنه أصبح مؤمنًا بهما."

"أين هو الآن؟"

"يختفي عدة أيام ثم يهل فجأة كإعصار."

صمتا لبرهة يتأملان تلألؤ نجوم السماء، حتى قالت سميحة:

"أخر مرة حضر، كدتُ أن أسترجعه، فقد كان في مزاج رائق وطفق يتحدث عن الرب بحب أعاده إليّ كما كان طفلاً جميلاً، احتضنته باشتياق وبرفق متشبثة بروحه القديمة إلا أنه بدأ في الكلام عن فكرة إعادة بناء المعبد كإعلاء لكلمة الرب وتحقيقًا لمشيئته وتنفيذًا لوعده لنا. أرضنا ما بين النهرين. التفت إليه وأنا غير مصدقة وسألته:

"أي هيكل هذا الذي سيقام؟"

نفض نفسه مني قائلاً:

"هيكل سليمان"

التفتت سميحة إلى إفراييم ثم أكملت حديثها:

"أنت تعلم أني لا أتجرأ أبدًا على التوراة وكلام الرب. لكنه استفزني بأوهامه التي ستقضي علينا جميعًا. قلت له وأنا لا أستطيع السيطرة على كلامي: سليمان الذين تريدون أن تقيموا هيكله قد كفر بالرب في آخر حياته ولم يشأ الرب أن ينزع ملكه في حياته إكرامًا لأبيه داود. أم إنك..... فصرخ فيّ اخرسي! وكاد أن يصفعني. جريت وأحضرت التوراة وقلت له اقرأ أم إنك لا تريد. فتحت التوراة على سفر الملوك الأول وأنا أقول اقرأ الإصحاح الحادي عشر. اسمع. (فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين. وأوصاه في هذا الأمر أن لا يتبع آلهة أخرى فلم يحفظ ما أوصى به الرب. فقال الرب لسليمان من أجل أن ذلك عندك ولم تحفظ عهدي وفرائضي التي أوصيتك بها فإني أمزق المملكة عنك تمزيقًا وأعطيها لعبدك). واقرأ قبلها (وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه. فذهب سليمان وراء عشتروت) سمعت (وعمل الشر في عيني الرب ولم يتبع الرب تمامًا) واسمع أيضًا:

(وهكذا فعل لجميع نساء الغريبات اللواتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن). كنا نقف متواجهين، كل منا يرتجف من الألم والغضب. آه يا إفراييم. كان وجه أخي متقلصًا يبعده عن يوسف الذي أعرفه. ظللت أنظر إليه متحدية. هل لمحت في عينيه ترددًا طفيفًا يزيح تلك الكراهية غير الأصيلة منه؟ هل لو كنت احتضنته ساعتئذ، هل لو اعتذرت له، كان سيتغير أي شيء؟"

أجهشت سميحة بالبكاء، فوضع إفراييم ساعده حول كتفها وضمها ضاغطًا جسدها له، ثم قال:

"لا تعذبي نفسك يا سميحة. لم يكن ليتغير ولو تغير العالم كله."

"إنه أخي يا إفراييم. لكم أحبه... تركني وهو يرتعد. لقد مر أكثر من شهر ولم يأتِ."

"سيرجع دون شك. أنا سأرجعه."

فرفعت سميحة رأسها بعينيها الدامعتين وهي تقول:

"لم يعد صديقك يا إفراييم، فلا تحاول. لقد فقدناه نهائيًا."

فلم يعلق إفراييم على قولها لتيقنه من صدقه.

توقف الاهتزاز وتوقفت الذكريات معه. قال سائق السيارة للمسافرين:

"سنتوقف هنا، حتى تمر كل اللوريات، فالطابور أمامي طويل. الاستراحة على يساركم."

نزلت سميحة وفردت جسدها قدر استطاعتها وتمطت لتعطي لبدنها الفرصة قبل الانحشار في السيارة مرة أخرى. لم تشأ أن تذهب للاستراحة. جلست على حجر كبير تتأمل الأرض الحصباء التي تتخللها أعشاب صغيرة ندية. أعجبتها حصى صغيرة ملساء، حاولت أن تنتزعها من الأرض بخلخلتها حتى أفلحت، تأملتها وأزاحت عنها التراب ومسحتها، ثم وضعتها في جيب جونلتها، وهي تفكر أنها ربما تكون هي التذكار الوحيد الحقيقي من هذه الأرض التي فقدت عليها حياتها الماضية كلها، دفن جزء منها مع أبيها، مع إفراييم والجزء المتبقي معلق مع يوسف.

رفعت رأسها تتأمل الأفق حيث تغرب الشمس واللوريات المحملة بعساكر ومدنيين تجتازها واحدة وراء الأخرى. هدأت الحركة قليلاً، فقال السائق:

"آن الأوان لاستكمال المسير."

فكرت سميحة وهي تراقب الطريق. إنه إكسودس خاص بي. إكسودس مضاد. كل اليهود يُهَرّبون إلى هنا، وأنا أرجع إلى مصر...

ثم رددت الجملة مرة أخرى.....

مصر.

الإسكندرية يناير 1978

وقف هاشم الصادق تحت المبنى الأكاديمي بأعمدته العالية السوداء يواجه مدخل أقسام الباطنة. رفع بصره يتأمل المبنى العالي. عالم آخر يفصله عنه، سنوات الدراسة الأكاديمية، إلى أن يصل إلى مبنى المستشفى. كانت رياح يناير الصقيعية تلفحه من كل اتجاه. احتضن نفسه قدر الإمكان ليشعر بالدفء. تكاد الرياح تطير الطلبة والأساتذة الذين يمرون تحت المبنى الأكاديمي. معاطف طبية بيضاء مندفعة وكأنها مسيرة في طريق محتوم. نظر إلى ساعة يده للمرة الرابعة. قرب امتحانها على الانتهاء.

تطايرت بعض المجلات من كشك المجلات الموضوع على الطرف الأخر من الممر. حاول أن يمسك بها بعض الطلبة قبل أن تطير بلا رجعة. ضحك هاشم من منظرهم ثم التفت مرة أخرى بسرعة إلى باب الخروج خوفًا أن تكون سارة قد خرجت ولم يلمحها. انغرس شيء ما في ظهره. كان أيمن وإسماعيل قد خرجا من باب مبنى الأكاديمي وغرس أيمن إصبعه في وسط هاشم وهو يتضاحك مع إسماعيل. فبادرهم هاشم:

"هل انتهيتما من سكشن الهستولوجي؟"

فقال أيمن:

"طوابير يا بني حتى تصل إلى الشريحة."

وأكمل إسماعيل:

"وأنت؟ لم خرجت من التشريح؟ ما زال أمامك ساعتان قبل أن ينتهي سكشن التشريح."

فقال هاشم:

"كل جثة عليها أكوام من الطلبة. تزاحمت ولكني لم أر شيئًا، هناك من أتوا بكراسي خشبية لينظروا من علٍ ولكن أيضًا هيهات. اكتفيت بالفرجة على ظهور الطلبة لمدة ساعة ثم خرجت".

فقاطعه أيمن:

"في هذا الزمهرير؟!"

ثم أكمل وهو يلمح نظرة هاشم المسترقة لباب أقسام الباطنة:

"آه. هكذا إذن."

فقال هاشم وهو يؤكد:

"نعم يا سيدي هو كما تظن."

فسأل إسماعيل:

"امتحان الباطنة اليوم. يا إلهي!"

فقال أيمن:

"سارة موسى حادة."

فقال هاشم:

تُرى هل سنصل يومًا للبكالوريوس؟... كأنه بعد ألف عام."

فقال إسماعيل:

"لو انتظرت هنا دقيقة واحدة وليس ألف عام، سأصبح تمثالاً من الثلج. أرجوكم هيا بنا."

ثم وهو يصرخ:

"سأموت من البرد. هيا."

دفع أيمن أمامه. فقال أيمن لهاشم:

"ألن تأتي معنا؟"

فقال إسماعيل وهو يكمل دفعه له:

"هيا. هل أنت أبله؟."

ثم وجه كلامه إلى هاشم:

"نحن في كافيتريا كلية الأسنان. وسننتظرك عندما تنتهي من...".

ثم ركضا باتجاه كلية الأسنان وهاشم يتابعهما بعينيه، ثم التفت فوجد سارة تخرج من الباب وشعرها يتطاير مع الرياح. وقفت لبرهة وهي تبحث عنه فرفع لها يده مشيرًا. اتجهت إليه فقال متلهفًا:

"خيرًا؟"

"الحمد لله. هيا. أنا سأدعوك على أيس كريم."

فقال مندهشًا:

"في هذا الجو العاصف!"

ضحكت:

"طبعًا. ثم بعده مشروب ساخن من أجلك."

انطلقا من باب المستشفى الميري ثم انحرفا يمينًا حتى محطة الرمل. أكلا أيس كريم من الفيومي. استمتعا بالنكهة اللذيذة الشرقية، ثم منه ذهبا إلى (على كيفك) وطلبا كرواسون وشاي، ضحك هاشم وهو يقول لها:

"نحن نحلي قبل أن نأكل."

فردت:

"لا ترتبط بالتسلسل المفروض علينا من الناس."

فأمن على كلامها وهو يبتسم:

"على رأيك."

فأكملت بمزاج رائق لمرآة أمامها:

"لا. وأنت (الصادق) (على كيفك)."

ومن الواجهة الزجاجية للمحل شبه الخاوي تراءت لها الميناء الشرقية تحت سماء من غيوم رمادية، وظهرت القلعة في نهاية طرف لسان الميناء كأثر لكائن أسطوري رابض. وضعت يدها على يده وهي تشير إلى نورس يقاوم الهواء بشدة. لونه الأبيض الشاهق يزيد من رمادية الكون حوله من بحر وسماء. كانت يدها باردة جدًا، فقال:

"هذا من الامتحان أم من الأيس كريم."

"كلاهما."

وضع الساقي الشاي أمامهما. استنشقت البخار بمتعة وأحاطت فنجان الشاي بيديها لتدفئتهما. فقال:

"ما كان يجب أن تأكلي الجلاس. ستصابين بالرشح."

"لا. يا سيدي."

"أراك تستمتعين بالدفء."

"كلاهما رائع. ألم تستمتع أنت أيضًا؟"

لم يرد والتفت إلى الواجهة مرة أخرى. تابع النورس الأبيض ثانية، لا ينهزم أبدًا أمام الريح العاصف. كم تدهشه بأشياء لا يتوقعها على الإطلاق. كأنه يحيا معها عوالم شتى، كل منها تنفي الآخر.

في المرة السابقة، تسكعا على شارع سعد زغلول بعد أن عزما على دخول السينما، ثم تغيرت الفكرة فجأة عندما سطعت الشمس من بين الغيوم. قالت له لماذا سندخل في الظلام

والشمس ساطعة في الخارج؟ فنتمش في الشوارع. انتهى بهما الأمر إلى محل العاديات القديمة في منتصف شارع سعد. وقفا متلاصقين منحيين أمام واجهته، أمسكت بيده دون أن تشعر وحدثته عن الابتسامة المتقنة الصنع في تمثال لبوذا معروضًا أمامهما، ثم انتصبت وقالت بحسرة:

"لم يعد الإتقان متوفرًا. انظر إلى طرف فمه. هذا الحرف المتسق لا تجد في الأعمال الفنية الآن."

ثم فجأة شدته من يده ودخلا المحل وهي تقول:

"هلم."

تقف أمام العاديات في الظلام البارد الرطب للمحل القديم. يحضر إليها البائع. يظن هاشم أنها ستسأل عن التمثال، إلا أنها تشير إلى علبة من الخشب المحفور. يأتي بها البائع وهو يقول:

"إنها هندية."

تتلمسها بأناملها أولاً، وكأنها تتعرف عليها دون أن تراها، حتى إنها جعلت هاشم يدقق في وجهها ليعرف إذا ما كانت مغلقة العينين أم لا، ثم احتضنتها وهي تلتفت إليه قائلة:

"رائعة. أليس كذلك؟"

تضعها على زجاج العرض، ثم تقلب كل نقودها فجأة على الرف. يشعر هاشم ببعض الحرج إلا أنه يلمح البائع مبتسمًا. تقول وهي سعيدة:

"تمام. أستطيع أن أكمل سعرها."

قالت له وهي خارجة من المحل ممسكة بالعلبة الملفوفة:

"لا أستطيع أن أقاوم العلب. يبدو أني امرأة صندوقية. نعم. أنا امرأة صندوقية. ولكني لا أخفي أسرارًا."

ثم قالت وهي تضحك:

"ها هي العشرة جنيهًا مكافأة الكلية الشهرية تذهب كالعادة."

"مبروك عليك. إنها قطعة من الجمال."

يجب أن أريك مجموعة علبي وصناديقي."

وعندما قص لأصدقائه، أيمن، إسماعيل وعمرو الحكاية. علق أيمن فرج قائلاً:

"حسن إنها لم تشتر التمثال. فهو حرام."

فقال عمرو مندهشًا، لأن منزله يحتوي على عدد من التماثيل:

"لم يا أيمن؟"

"هذا حرام. الأنصاب رجس من عمل الشيطان."

فقال هاشم:

"التماثيل في كل مكان ولم يعبدها أحد."

"إنه الدين. لو أتى إليك شخص بوذي، ألن يتعبد هذا التمثال في بيتك. إذًا هذا حرام."

ولما قص على سارة هذه المناقشة قالت له:

"أعرف أيمن. مازال متخبطًا بين انتمائه للجماعة الإسلامية وما يمثله فكرها وانتمائه لشكل الحياة الممثلة في الشلة التي يظن أنها لا دخل لها بمفهوم الدين، رغم تيقنه من العلاقات الصادقة البريئة التي تجمعنا."

"لقد حلق لحيته."

فقالت وعيناها تضيقان:

"نعم، ليس هذا بالشيء لمهم، فهو حر فيها، ولكن هل استعمل عقله؟"

"عندما أواجهه يقول: النقل قبل العقل."

"أنصحه بقراءة المعتزلة."

"يا ستي. إنه لا يقرأ على الإطلاق."

"إذن قل لي. لو زارني واحد من عبدة النجوم أو الأشجار أو الشمس والقمر، ماذا أفعل؟"

ابتسم هاشم وهو يتذكر هذه المحادثات، فقالت سارة وهي ترشف آخر ثمالة من فنجان لشاي:

"تضحك؟ لماذا؟"

فقال وهو مازال يتابع النورس:

"إنه النورس. عنيد جدًا."

"يا له من طائر."

أصر على دفع الحساب قائلاً لها:

"أنا أيضًا أقبض مكافأة الكلية. عشرة جنيهات كل شهر مثلك تمامًا."

"إذن هيا بنا على كولومبيا."

فقال باندهاش:

"كولومبيا؟!"

"محل الأسطوانات وليس الولاية يا ذكي. قم بنا لقد سطعت الشمس مرة أخرى."

سارا في شارع سعد زغلول إلى أن ولجا في محل كولومبيا الواسع. حيت سارة السيدة الأجنبية التي تقف خلف طاولة العرض فبشت لها وقالت:

"آه سارة. حبيبتي. لقد جاءني ما طلبتِ."

وأخرجت أسطوانة وناولتها إياها.

"سأستمع إليها بالداخل."

دلفت إلى إحدى الأركان الداخلية وتباطأ هاشم وهو يتابع بعينيه الأسطوانات الحديثة لفريق الأبا السويدي وفريق بينك فلويد. نادته سارة فلحق بها ووضعت الأسطوانة وأمسك كل منهما بطرفي السماعة الكبيرة، التصق رأساهما. تهادت الموسيقى بمقدمة شرقية بالقانون ثم صدح صوت حار هاشم فيه، إلا أنه سرعان ما أُخذ بالجمال والروقان الذي يشمل كل شيء في الأغنية. لمح اسم أم كلثوم على الأسطوانة التي تدور، دون أن يخرجه هذا من الحالة التي وضع فيها. وعندما انتهت الأغنية تساءل هل هي أم كلثوم التي يعرفها، واحدة أخرى.

"أم كلثوم!!! غير معقول؟"

"هل سمعت هذا الجمال؟ (ياماناديت)... لحن القصبجي."

"وطبعًا كلمات رامي."

"بالضبط."

اشترت الأسطوانة وهما بالخروج، غير أن زخات المطر اندفعت ساترًا أمامهما عند باب المحل. فقال هاشم:

"لم نشعر ببدء المطر!

ظلا منتظرين برهة ثم قالت سارة:

"هل يوجد أجمل من الغناء تحت المطر؟"

وقبل أن يجيبها اندفعت في اتجاه شارع الفلكي فجرى وراءها. قطعا شارع الفلكي جريًا حتى وصلا إلى شارع شريف باشا وعبرته ودخلت من بوابة عملاقة لبيت قديم. ثم وقفت تلهث. أخرجت الأسطوانة التي خبأتها في ملابسها خشية المطر، ثم قالت له وسط لهاثها:

"سنصعد الآن إلى شقة خالة أبي وسأريك شيئًا مذهلاً."

صعدا السلالم العالية، ودخلا شقة كل ما فيها يوحي بعز قديم. خلعت سارة معطفها وهي تقول:

"اخلع الجاكيت حتى لا تصاب بالبرد."

أحس هاشم بالحرج، فلأول مرة منذ أن عرفها، يتواجدان معًا في مكان مغلق. فكر في أيمن وهو يقول "والشيطان ثالثهما."

"سأعد شايًا ساخنًا. خذ راحتك."

ثم انصرفت إلى الداخل وخرجت وهي تحمل بشكيرًا كبيرًا تجفف به شعرها وتناوله آخرًا:

"حتى تجفف شعرك أنت الآخر. أنا وضعت الماء ليغلي. هل نستمع إلى الأسطوانة مرة أخرى؟"

هز هاشم رأسه بالموافقة بعد أن جفف شعره وجلس على مقعد وثير.

سمعها تدندن اللحن مع أم كلثوم في المطبخ ثم أتت بالشاي وجلسا يحتسيانه باستمتاع وعندما انتهت الأغنية تكلما كثيرًا عن القصبجي وأم كلثوم والسنباطي. كان يفكر إنها تربكه عادة بآرائها غير العادية، كأنها تدفعه دفعًا للتفكير بطرق مختلفة، إنها لا تحب عبد الوهاب لأنها لا ترى أصالة في ألحانه إلا فيما ندر، وأنها تتوقع أن من سيبقى هو القصبجي والسنباطي. لا تميل إلى الأغاني الأخيرة لأم كلثوم وتقول إنها دغدغة لأسماع العوام فقط. تقول إن أم كلثوم تذكرها بأننا بشر من طين وأحياء بكل المشعر المتضاربة، وأن لنا أهواء قاتلة وغوايات لا تشبع، بينما تذكرها فيروز بأطياف السماء حتى ولو تغنت عن تلك المشاعر، إنها تملك صوت ملاك رضي الله عنه.

ثم فجأة قامت وهي تشير إليه قائلة:

"الآن، سأريك شيئًا عجيبًا محيرًا."

أمسكت بيده واتجها إلى غرفة داخلية واسعة تطل على شارع شريف. فتحت النافذة والخصاص، فسطعت شمس جديدة بكر حنون. أشارت إلى برواز زجاجي موضوع على حامل في أحد أركان الغرفة. ذهبا إليه وعندما اقتربا وضح لهما صورة ملونة لوجه بشريّ مرسومة على لوح خشبي بها بعض التشققات الطويلة. مسحت سارة اللوح الزجاجي فبان الوجه أكثر وضوحًا. قالت وهي تنظر إلى عينيه:

"تأملها جيدًا."

أدرك هاشم ما ترمي إليه، فالوجه يكاد يطابقه في الشكل. فسر مندهشًا من هذا التشابه. اندفعت قائلة عندما أدركت أنه لاحظ الشبه بينه وبين الوجه:

"انظر، نفس الحاجبين والعبسة بينهما، والعينين النظرة، الشعر الملفوف الناعم ولونه. الذقن والفم حتى زاويتاه!"

"نعم. أكاد لا أصدق. كأنه أنا."

"والأهم. انظر إلى الروح التي اقتنصها الرسام."

"متى رسمت؟"

قالت باهتمام:

"إنها أثر هام، ورثته خالة أبي من جدها. إنه أحد وجوه الفيوم. أبي أخذها معه للندن ليتأكد فقيل له أنها من النوادر التي لم تُفسد بالتشققات الواسعة... عمرها حوالي ألفي عام، وهي مسجلة كآثار تمتلكها عائلة أبي."

"إنه فعلاً رائع."

"لكن العجيب حقًا هو هذا التشابه بينك وبين شخص من ألفين من السنين."

فقال متفاخرًا:

"أرأيت؟ أنا أصيل أصالة هذه البلاد. ألم تقولي لي أن ما يؤثر فيك في الفن هو الأصالة؟"

"فعلاً. هذا ما يشبعني في الفنون."

ثم أتت بمرآة ووضعتها أمامه لكي يقارنا أكثر بين الوجه الحي والمُستحيا. ظلا يتضاحكان من هذا الشبه، ثم وضعت سارة المرآة جانبًا وانحنت عليه فجأة ولثمته على خده، قبلة سريعة إلا أنها ألهبته فتورد خداه في التو. أخرجته سارة من خجله بجرها إياه وهي تقول:

"يوجد هنا أسطوانات كثيرة. لنرَ!"

"أتعجب منك يا سارة."

"فيم؟"

"المرة السابقة سمعتك تتحدثين مع وداد وهالة عن موسيقى الجاز بكل حب، هل تعجبك كل أنواع الموسيقى؟"

"بالطبع لا. ولكني لا أضع لنفسي تابوهات ممنوعة. أعطي لنفسي الفرصة للسماع عدة مرات قبل أن أحكم على شيء، فمثلاً أنا لا أميل لموسيقى الجاز كما تعتقد ولكني أعشق نينا سيمون التي تكلمت عنها من قبل مع عمرو."

"كنت قد نسيت اسمها."

"أنها تمتلك نفس الحس القوي الممتع، مثل أم كلثوم، أي إنها مفترية بكل بساطة."

"تقلبك من أم سيمون لأم كلثوم هذا عجيب."

"لا تكن منغلقًا. دع نفسك للحياة."

فقال متجرئًا على خجله معها:

"أنا سأدع نفسي لك."

فقالت:

"يا لك من ولد مراوِغ! الآن سأسمعك موشح "قم بنا"

فقال:

"لا. أرجوكِ. أغنية قديمة واحدة تكفي في اليوم كبداية، ويكفيني أنني استمتعت بها."

فضحكت وهي تجلس على الكنبة:

"نعم. في هذا عندك حق. أنا دائمًا في عجلة من أمري وأنا أعلم هذا."

"لم أقصد."

"هيا، هيا بنا. فلننزل الآن. الشمس تغمر الإسكندرية الجميلة المبهجة والكورنيش ينتظرنا مجنونًا."

"هلم بنا."

الدار البيضاء ديسمبر 1949

الدار البيضاء في سابع عشر من ديسمبر

أخي الحبيب رأفت

أولا قد تندهش لكتابتي لك هذا الخطاب باللغة العربية، إذ طالما كانت رسائلنا المتبادلة كأحاديثنا الخاصة دائمًا باللغة الفرنسية الممتعة ولكنني متيقن أيضًا من حبك للغة العربية وعشقك لها الذي يكاد يباري عشقي أنا لها. هل تذكر كم كنا نتراهن على حفظ الأبيات الشعرية ونحكم فيها الأستاذ الكومي أستاذ اللغة العربية رحمة الله عليه وعلينا جميعًا. لكم كان رائعًا هذا المربي الرائع! أتتذكر عندما كان يتأمل وجهينا معًا، ثم يقول لي بوجهه الجديّ: "إن رأفت أكثر قدرة منك على حفظ الآيات القرآنية وأبيات الحماسة والفخر، أما أنت فمعظم ما تحفظه هو أبيات الغزل" وعندما بدا بعض الاعتراض على وجهي، أكمل قائلاً: "ولا تنتقي من القرآن سوى الآيات التي تتحدث عن الجنة ومغفرته سبحانه وتعالى". ثم يربت على كتفك ويقول: "أتنبأ لك بمستقبل باهر في السياسة يا رأفت". ثم يلتفت إليّ: "وأنت في الحب". آه. يا رأفت يا لها من أيام جميلة. كنت أغاظ منك وأهددك بإبلاغ والدك بأنك تحفظ من آيات القرآن أكثر من آيات الكتاب المقدس. فتجيب ضاحكًا إنه يحفظ أكثر منك ويشجعك لغرامه باللغة العربية الذي ورثته أنت. فأهددك بوالدتك فتقول: لا، أما هي فلن تقتنع أبدًا وستكون ورطة لنا جميعًا. فنضحك معًا. أنا أتذكر أن يومها ذهبنا إلى بيتك وتغدينا معًا. كنا في أسبوع الآلام والأكل صيامي، وهبرناه هبرًا بغير ذي لحم كما قال والدك متساخرًا. رحمه الله هو الأخر وقدس روحه. تنبأ الأستاذ الكومي بدخولك السياسة ودخولي أنا عالم الحب. ها نحن الاثنان نغوص في عالم واحد من السياسة. وأنت الذي توّج بإكليل الزواج، وأنا مازلت أنتظر– آه. ما أجمل هذا الآذان الآن. هذا الصوت الجميل الآتي من فضاء الزمن هو ما جعلني أكتب إليك باللغة العربية، كأنه مُرَجّع منذ آلاف الأحوال، جُبتُ معه سنين مضت. هل تصدق أني أشم رائحة هذا الزمان الماضي. كأني أطل على زمن آخر قبل أن أولد، لا أعرف كيف أشعر به جامدًا ساكنًا هكذا، حتى لكأنه عالم أخر غير عالمنا في هذه الدنيا... أتذكر

بشدة فترة (وأنا صغير)، أنا لم أستطع أن أكتب وأنا طفل لأنها لا تليق بتركيبتي، لأني ما أحسست أني طفل بأي حال. فقط كان حجمي صغيرًا، ولكن كأني مدرك لكل مشاعر الكبار وأحاسيسهم. وها شعري بدأ فعلاً يتلألأ بلجين يعجبني، (ويكثر من المعجبات حتى لا تظن أن بي شيبا مثلاً. إياك!) زمان.. كنت أبيت كثيرًا عند خالتي الكبيرة التي تكاد تكون أخت جدتي لفرق السن الضئيل بينهما، طنط دِدَة برج الحمل البيضاء البضة الرائعة، كانت كتلة من الحنان والمشاعر الدافئة، كنت أرقد بجوارها وأنا صغير وهي كما الجبل بالنسبة لي. نهلتُ منها تحنانًا، كنت قد نسيته من زمن.... أنا ذو حظ وافر حقًا... يرحمها الله رحمة واسعة. كانت فوارة المشاعر وانفعالية مثل كل الحملان، لكنها كانت تصنع البريوش في شم النسيم لا مثيل له في الدنيا وتزينه بالبيض الملون. كل عام كنت أستمتع أي استمتاع بتلوين البيض معها وتبعث بي لشراء الألوان... كان عيدًا حقيقيًّا بالنسبة لي... هل تصدق أني تقريبًا شامم رائحتها الآن. رائحة طنط ددة... كان لها رائحة جميلة وعطرة مثل كل السيدات البضات... اللاتي كن في زمن آخر بعيد... تذكرت أنني منذ **3** أسابيع تقريبًا أخرجت قميصًا لي من مصر، لي مدة طويلة لم أضعه عليّ، وإذا بي أشم رائحة أمي... شيء عجيب جدًا، لأنها لم تكن رائحتي أنا بل رائحتها هي. مثل (ريح يوسف). أرسلت لها من توي وقصصت لها هذا... نرجع لددة.. كانت تصحو كل يوم فجرًا لصنع عصير الليمون الطازج وتضعه لي على الكومودينو جوار الفراش ثم تدلف فيه مرة أخري وتنام، كل هذا من أجلي عندما أُصبح، أجده طازجًا وجاهزًا في الشفشق الأزرق الصغير... مازلت أحتفظ بهذا الشفشق الزجاجي الأزرق...

لست أدري ما الذي حاق بي حتى أتذكر كل هذا. ربما شكل الحروف العربية وتشابكها وتداخلها أو ربما الآذان هو الذي أتى بهذه الذكريات والروائح. أقسم بالله الروائح. أيضًا رائحة الهواء الذي كنت أتنفسه في بيتها، ورائحة الجو ساعة العصرية... وبرودة الماء الطيبة وهي تمس شفتي.

عندما كان أبي وأمي وأخوتي يأتون لزيارتنا (كان بقائي لديها يدوم أسبوعًا وأكثر، حيث إنها كانت أرملاً وبلا ولد، لذا كانت أمي تعيرني لها)، كنت أتعامل معهم على أنهم ضيوف لددة ولي....

Et bien.... الأستاذ الكومي كان عنده حق. كأني أقف على الأطلال في صور معلقة عتيقة، ولكن أين الحبيب أين؟؟ أشعر أني على شَفَا شيء مبهم، غير قادر على الإفصاح. شيء يقبل ويدنو. يا الله يا رأفت ما بي؟ رغم كل ما تمر به المنطقة من اضطرابات أتحدث أنا عن حب مبهم منتظر.

فلنرجع للحاضر المؤلم. أمس عرفت بقرار انتقال الحكومة الصهيونية إلى القدس من تل أبيب، متجاهلة تمامًا قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة بتدويل القدس. طبعًا ماذا كانوا ينتظرون بعد نجاح حزب الماباي بزعامة بن جوريون في أول انتخابات في إسرائيل. هذا المسخ الذي يفرض نفسه علينا، وانضمامه إلى الأمم المتحدة في مايو الماضي.

ماذا ينتظر العرب؟ يا للعار! أي أيام سنشاهد؟ تتعمد إسرائيل أن تظهر للعالم كله على أنها دولة تقوم على الأساس الديموقراطي الغربي. سنرى إلى أين سيؤدي بهم تعصبهم. الكل في السفارة عندنا متأزم. أنا أعرف المجهود الذي تبذلوه في حزب الوفد لعودة الديموقراطية، وأنا أظن أن الانتخابات الآتية في الشهر القادم – لو تمت بأمانة – سيفوز حزبك وسيصبح مصطفى النحاس باشا رئيسًا للحكومة. لا أعتقد أن حكومة سري باشا ستستمر أكثر من هذا.

أنا لا أتصور أبدًا، أنه قد مر تقريبًا خمسة أعوام عليّ هنا في المملكة. أنا جئت قبل مقتل أحمد باشا ماهر – بأسابيع. هل تتذكر أين كنا يومها ؟؟ لن أذكرك. ستضحك كثيرًا.

البلد هنا رائعة، كأنها من ألف ليلة وليلة. لكن الشعب فقير جدًا.

صدرت منذ سنة تقريبًا سلسلة من المراسم تحولت بها الملكية المطلقة للسلطان سيدي محمد في مراكش الفرنسية إلى نظام حكم متحرر عن طريق إنشاء مجالس استشارية ينتخبها المسلمون واليهود من أهل البلاد. هل أخبرتك هذا من قبل؟ لم أعد أتذكر.

على فكرة إنهم في المغرب العربي كله، مسلمون ويهود، يعتبرون أن العدو هو المسيحي المحتل بعكس المشرق العربي مثل مصر حيث إن المسلمون والمسيحيون هما النسيج الأصلي للبلاد، لقد كتبت لي أن الصهاينة بنشاطهم قد جعلوا كثيرًا من أهل مصر ينظرون لليهود نظرة مستريبة. نعم معك حق، لقد جعل الصهاينة اليهودَ أعداءً دون داعٍ. هل تتذكر زميلينا اليهوديين إلياهو عبد الواحد، وثابت أصلان، اللذين كانا لا ينفصلان، لقد قابلت إلياهو في مدريد من فترة قصيرة، كنت في مهمة رسمية من السفارة في مراكش إلى سفارتنا في إسبانيا بمناسبة وصول ملك شرق الأردن الجديد الملك عبد الله، أقصد اسمها الجديد "المملكة الهاشمية الأردنية" كما تم تغييره منذ خمس شهور تقريبًا. إنه – الملك عبد الله – أول رئيس دولة يزور إسبانيا في عهد فرانكو. المهم أني تقابلت مع إلياهو بالصدفة وقال لي أن ثابت قد تزوج أخته نجمة وأنهما هاجرا إلى الولايات المتحدة. يا للعالم العجيب! هل تتذكر كم كانت نجمة قبيحة رغم وسامة أخيها إلياهو. لا هي لم تكن قبيحة. نحن من أطلق عليها هذا لأنها كانت تشبه أخاها غير أن ملامحه هو اتسمت بالوسامة ونفس الملامح عندها بالغرابة. آه. لقد تزوجت ثابت وهاجرا إلى أمريكا. قوة جديدة ترث قوة قديمة متهالكة. بالله

عليك. قد أستطيع أن أفهم هيروشيما ولكن كيف أستطيع أن أتقبل أو أتصور ناجازاكي. أي مبررات لقذف تلك المدينة بالقنبلة الذرية. مارد آخر يأتي للعالم. ما إن تنتهي حرب حتى تبدأ حرب.......... تلك الحروب الكبيرة، أما الآن سأسألك عن الحروب الصغيرة بين مَلَكَة زوجتك وبين الوالدة العزيزة الست تفيدة، كما أخبرتني في رسالتك الأخيرة – التي وصلتني للأسف متأخرة جدًا كما هو واضح من التاريخ الموقع وختم البوستة.. لكن لله الحمد أنها لم تضع... سلامي لكم جميعًا، وبالذات الوالدة وبلغها أني أشتاق كثيرًا لطبق الكشري الذي تبدع فيه. أما القبلات الكثيرة فهي مني للابن الجميل جوزيف الذي لم أره حتى الآن ولكن صورته تشي بأن فرعون بحق، مثل والدك تقدست روحه ورحمة الله عليه وعلينا.

الآن عليّ إنهاء هذه الرسالة حيث إنه مناط إليّ استقبال فرقة مسرحية آتية من مصر لتقدم عدة عروض في الرباط والدار البيضاء، وربما في فاس لست متأكدًا. على فكرة المغاربة يحبون كثيرًا الفن المصري أم كلثوم، أسمهان، عبد الوهاب.

ختامًا. سلامي لكم جميعًا وحبًا كبيرًا وسلامًا وأشواقًا للمعشوقة الأولى... الخالدة المحروسة مصر.

أخوك المحب

محمود حفني

مرسى مطروح يناير 1979

كانت فرصة لا تعوض بالنسبة للشلتين، عندما دعاهم شريف شعلان صديقهم إلى مرسى مطروح في فيلا عمه الذي يمتلك فلتين هناك، واحدة للسكن والأخرى للتأجير. اتفقوا جميعًا على القيام بالرحلة رغم الشتاء:

انبرى شريف قائلاً:

"بل الوقت مناسب جدًا. إجازة نصف العام لشلة ثالثة والاحتفال بإنهاء شلة البكالوريوس الدراسة أخيرًا"

رفض بعض أولياء الأمور السفر، لكن الرحلة لم تفسد لإصرار جملتهم على السفر. وللحظ أشرقت سماء الشتاء بشمس جميلة. استقلوا الأوتوبيس إلى مرسى مطروح فوجدوها بلدة صغيرة عبارة عن شارع واحد رئيسي طويل. ثم ركبوا أكثر من طفطف للوصول إلى عزبة الأنفار التي تقع على حدود مطروح. نبههم شريف أن عمه قد أوصاه أن يهتموا بالجيران لأنهم من عرب الصحراء ولهم تقاليدهم، وأنهم سينقسمون إلى قسمين البنات في فيلا عمه والأولاد في الفيلا الأخرى. اعترضت صفية قائلة:

"تتركونا وحدنا؟ ماذا لو هجم علينا أي شيء."

فقال شريف مطمئنًا:

"المكان كله أولاد عرب وجيران عمي من زمن. لا تخافي."

وفي نفس الوقت داعبها عمرو قائلاً:

"أنتن من يجب أن نخاف على الجيران منكن."

فأكمل شريف:

"ثم كما ترين الفيلاتين متجاورين والسور بينهما ليس عاليًا. وإذا أردتن شيئًا نادين."

فيلتان بأحجار بيضاء وحديقتان رمليتان لا يوجد سوى الصبار في أركانهما. كل فيلا تتكون من غرفتين نوم وصالة واسعة ومطبخ وحمام.

قال إسماعيل:

"يا بخت البنات. يوجد أربع أسرّة وهن خمس فقط، أما نحن فسنحشر كل اثنان في فراش."

أكمل شريف تعليماته:

"الماء يأتي بعربات كبيرة وتملأ الصهاريج أسفل الفيلا ولذلك علينا جميعًا الاقتصاد في الماء. وكل يوم علينا بضخ الماء للخزان أعلى الفيلا."

فقال هاشم:

"يا له من عمل شاق نبدأ به يومنا أول كل صبح."

فقالت سارة:

"طبعًا سيأتي واحد منكم يوميًّا للضخ. من فينا يستطيع هذا الشقاء؟"

فرد أيمن:

"المساواة يا سارة المساواة. أنسيتن مطالبكن؟"

فقال شريف:

"هيا يا بنات إلى فيلاتكم."

حملت كل منهن حقيبتها، واختفين فيها. وولج الشباب في الفيلا الأخرى، وذهب شريف ليسلم على الشيخ صالح الجار ويبلغه تحيات عمه د. عزت شعلان. ورغم بشاشة شريف إلا أن الشيخ صالح لم يرتح تمامًا لوجودهم جميعًا معًا حتى ولو منفصلين في فيلتين. وعندما لمح بهذا لشريف، أجابه بأدب وبالتلميح أيضًا إنهم كلهم أصدقاء وزملاء كما أن بينهم أخوة، وأنهم جميعًا هنا برضى عمه الدكتور عزت صديقه، ثم استأذن وعاد إلى أصدقائه.

سيُعتبر هذا الأسبوع من أجمل أيامهم وسيظلون يرددون نوادره كلما تقابلوا – ولو بعد عشر سنوات – مرة بالصدفة في جلسة في مؤتمر طبي، أو لقاء عابر بين أي منهم عندما تفرقهم السنون وتصبح هذه اللقاءات عزيزة وأقرب للقاء الغرباء.

(هل تتذكر عندما اكتشفنا قبل الرحيل أن الخزان العلوي ممتلئ وأن علينا أن نترك الحنفيات مفتوحة ونحن نتحسر على أنا لم نستخدم هذه المياه في أخذ حمامات لأن شريف منعنا من هدر المياه خوفًا من نفاذها).

أو أن يقال:

(فاكرة يا صفية عندما ظننتِ أن الجرس الذي تسمعينه هي حية الجرس التي تزحف على السقف واتضح فيما بعد أنها الأجراس في أعناق ماعز الجيران).

(المكرونة. لن أنساها. أول مرة كانت مُدَوّدة ثم أرجعناها وطبخنا مكرونة جديدة وعصرنا الطماطم وعندما اكتشفنا أن الصلصة ثم تكف، أخذنا قشر الطماطم من الزبالة وأضفناه إليها ولم نقل للآخرين ولا للبنات والغريب أنها أعجبتهم جميعًا).

(هل تتذكرون عندما اكتشفنا أن هاشم لا ينام في الظلام أبدًا، ويجب ترك الخصاص مواربًا ليدخل بصيصًا من الضوء ورغم ذلك لم يدخل نور ولا أي شيء).

(هل تتذكر عندما حيينا الرجل القابع في ركن ما عندما ذهبنا لنأتي بالطعام ولم يرد علينا التحية والتصقنا ببعض وأعدنا السلام ولما لم يرد تصورنا أنه عفريت المكان، وعندما اقتربنا هلعين وجدنا أنه مجرد صفيحة قمامة ملقاة).

(جلباب نوم عليّ وشكله المضحك بقصره الواضح وأنه هو الوحيد الذي يلبس جلبابًا والباقي بيجامًا. وسخرية إسماعيل منه وقوله فليذهب لينام مع البنات بقميص نومه هذا).

(الشريطان الوحيدان اللذين استمعنا إليهما... المصريين والبيتلز. وظللنا أسبوعًا كاملاً لا نسمع سواهما).

وذكريات كثيرة تطفو ثم تختفي كلما اجْتر الحنين للأيام الماضية بأي حادثة لنسم روائح تلك الأيام. غير أن كل منهم دون شك قد احتفظ لنفسه بذكريات لم يبح بها لأقرب الناس إليه، أو حتى حاول هو نسيانها. ربما لا تكون ذكريات بشكل أحداث تمت ولكن أحاسيس فجائية كومضات البرق أو سقوط الشهب لا يشعر بها أحد على الإطلاق سوى من رآها أو حتى لا يشعر بها أحد إطلاقًا ولكن يبقى لسقوطها ووميضه أثر عليهم. فلنأخذ منهم مثلاً أيمن فرج:

في صباح إشراقه دافئ، نزلوا من التل العالي الذي تعتليه الفيلاتان وانحدروا عبر معسكر مهمل للجيش إلى شاطئ البحر البديع وتفرقوا جماعات حول الشاطئ المراوغ المتعرج، صارت هذه الجماعات تتبدل وتتغير ويتبادل أفرادها طوال المسير الذي طال أكثر من ساعتين ذهابًا وإيابًا على نفس البقعة التي بدءوا منها. ارتموا على رمال الشاطئ مستمتعين بتعبهم، غير أن لفتوة شبابهم الذي لا يهدأ سطوة جعلتهم ينتفضون ثانية للعب، منهم بسعادة ومنهم من على مضض.

"لنلعب لعبة الأفلام."

"لا. فلنجعل الأفلام مساءً، عندما لا نجد شيئًا آخر لتمضية الوقت."

اقترح عمرو تبادل الشعر بدلاً من الأفلام واعترض أيمن:

"من فيه عقل الآن لتذكر أبيات الشعر؟"

اقترحت شذا بصوتها الخجول الرفيع:

"لنلعب المنديل."

لقي اقتراحهما استحسانًا من الكل. أمسك إسماعيل، لأنه أطولهم بالمنديل وتوالى عليه فرد من كل فريق. المنديل معلق واختير رقمين، فجرى كل من سارة وهاشم إلى المنديل، كل منهما يحاول أن يلتقط المنديل أسرع من الثاني ليرجع إلى فريقه قبل أن يلمسه الآخر. تأمل أيمن الرقص وحركات الجسدين وهما يتماوجان بلا تلامس حول المنديل. أثاره شيء ما في تلك الحركات، حفزه وشحنه بما قبل المشاعر المدركة، لكن ما تأجج داخله لم يدركه حتى هو نفسه. كأنها تلك الألوان التي توضع على اللوحة للتهيئة وتغطى فيما بعد بالألوان النهائية، فتختفي تمامًا عن عين الرائي، لكنها ذات تأثير مؤكد موجود. ربما بدا بحركة لا شعورية من ساقه كحركة توتر ما قبل الانطلاق، أو بانتفاضة ساعده ورعشة يده كأنه هو من يحاول أن يصل إلى المنديل الذي يرفرف ببياضه بينهما. وعندما تلامس الجسدان المتدافعان علامة على قرب نية كل منهما على اقتناص الفرصة، انفصلت روحه عن جسده وتعلقت ساكنة في انتظار لحظة العتق......

يتواصل النهار الذي يُسلم سريعًا لليل الشتاء، فيبدءون في العودة، منتشين بفورة مشاعرهم وانهاكهم اللذيذ، ويرتفع صوت سارة الجميل المدرب فجأة:

"مصر يآمه يا بهية   يامُ طرحة وجلابية."

وعندما تنتهي منها يطلب منها أيمن "حاحا" التي تلاقي إقبالاً كبيرًا منهم منذ أن سمعوها لأول مرة، إنها لا تؤثر على حسهم الوطني برقة مثل "مصر يآمه" ولكنها أقرب إلى التهريج لأن الكل يردد بعد كل مقطع كلمة "حاحا" التي حاروا في معناها.. وعادة ما تنتهي المقاطع الأخيرة بصوت يشبه الصراخ بـ "حاحا" وراء "حاحا" أعلى. وكثيرًا ما كانت هذه الأغنية البداية لمناقشات سياسية أو دينية أو حتى لغوية لفك معناها.

في هذا الأصيل لم تفتح لهم "حاحا" أي حوار، انتهت فقط بصخب عارم على الشاطئ الخاوي، قبل الرجوع للالتزام بالصوت الخفيض في عزبة الأنفار.

دخلوا الفيلا مع آخر شعاع للشمس وحضروا على النور الضعيف المنبعث من اللمبة الوحيدة في المطبخ الطعام. أكلوا منشرحين وضاحكين. جلسوا في دائرة واسعة في الصالة الواسعة في فيلا البنات ولعبوا الأفلام حتى ملوا فقرروا بخبث واضح للكل لعب "الزجاجة والحقيقة". دارت زجاجة البيرة التي وجدوها في المطبخ وتوالت الأسئلة بين طرف الزجاجة السائل وقعرها للمسؤول. أسئلة ساذجة كثيرة يتخللها أسئلة مغطاة لمعرفة الدواخل والسرائر، وتوالت أيضًا الإجابات محملة أيضًا بعمق المشاعر المتوارية المستحية أو كاشفة عن حيرة المسؤول الحقيقية في مواجهة نفسه. وإذا

ما وقعت الزجاجة في محور من الصعب تحديد السائل والمسؤول في هذه الحلقة، فكان الجميع يعمد على إيحاء توجيهها للأشخاص الذين يريدون أن يعرفوا ماذا سيسألون لآخرين منتظر إجابتهم.

تواجه أيمن مرة سائلاً مع هاشم مسؤولاً فقال:

"هل أنت حالم فعلاً لهذه الدرجة كما تبدو؟"

نظر هاشم إليه وفكر... هل هو حالم، فهو في أوقات كثيرة يشعر أنه يعيش في عالم آخر، هو حالم فعلاً وشاعري رقيق الشعور ولكنه يدرك أن بداخله قوة عنيفة عاتية، ربما اكتسبها من حبه الشديد للقراءة التي يترك لها الزمام لتوسيع مداركه بلا حدود. تلك المعرفة – التي تعرف ضآلتها في بحر المعرفة الحق – تعضده بشكل لا يصدق، ولكنها تبدو بلا تأثير على مشاعره المفرطة الحساسية. كما يوجد أيضًا حبه لسارة الذي يفتته ويحميه في ذات الوقت. تغلب خجله عليه فأبى أن يعترف بأنه حساس وحالم وقبل أن يجيب بأنه فعلاً ليس حالمًا لهذه الدرجة قال له أيمن:

"أنا أعرف أنك حالم جدًا ولكني أردت أن أكشف هذا للآخرين."

هل اغتاظ هاشم لهذا الاستطراد، هل ضايقه يقين صديقه عن مشاعر لا يدركها حتى هو نفسه صاحب هذه الأحاسيس، فاستجمع شجاعته وقال:

"بل أنا لستُ حالمًا إلى هذه الدرجة التي تظنون."

وقبل أن يعلق أي منهم، أمسك بالزجاجة وأدارها فتواجه هاشم مرة أخرى ولكن مع سارة فسألها وكان يحب استثارتها بأسئلة تبدو كالألغاز:

"أي علاقة يتبادلها الحب والكره؟"

فقالت:

"بالنسبة لمن؟"

فقاطعها أيمن:

"وهل تتغير هذه العلاقة بالأشخاص؟ فالحب حب والكراهية كراهية."

فابتسمت سارة وقالت:

"أنا في رأيي، أنها تختلف باختلاف الأشخاص."

قاطعتهما هدى:

"لا نريد أن نخرج عن السؤال. أين الإجابة؟"

فقالت سارة:

"بالنسبة لبعض الناس، الحب والكره دائرة واحدة ولآخرين لكل منهما دائرة منفصلة، قد تنطبقان وتتطابقان أو تتسع واحدة وتضيق الأخرى."

فقالت صفية وهي تقف:

"لا دوائر ولا مربعات. أنا أريد أن أسأل سؤالاً واحدًا: متى سننام؟ أنا في غاية التعب."

تعالت بعض الاعتراضات الكسول ولكن في النهاية تفرقوا واستعدوا كلهم للنوم الذي لن يأتي إلا بعد كثير من المحادثات الثنائية والرباعية في ظلام الغرف.

هاشم مستلقيًا على ظهره وبجواره أيمن يستند على ساعده الأيمن وهو ممدد على جانبه رافعًا رأسه ويحدق فيما يُخيل له أنه وجه هاشم في الظلام الدامس الذي يغلفهما ويهمس له:

"هاشم. هل نمت؟"

فيجيبه بين صحو نوم:

"لا."

"أتعرف إنها أول إجازة طويلة لي منذ دخولي كلية الطب."

"نعم."

"ملحق في إعدادي طب وآخر في سنة ثانية. ولا إجازة بين أولى وثانية، كنت قد نسيت طعم الإجازات."

"عليك فقط بتنظيم وقتك."

"نحن نذاكر معًا دائمًا، ومذاكرتك أقل كثيرًا مني."

"ربما لأني أقرأ في موضوعات مختلفة غير المذاكرة فيساعدني هذا."

فشرد أيمن قليلاً:

"ربما كنت على حق."

"في ماذا؟"

"في الصين."

فقال هاشم:

"أي صين؟ يبدو أني قد نعستُ. هل سمعتك تتحدث عن الصين؟"

فرد أيمن:

"ولو في الصين.... العلم."

"آه. نعم."

صمت أيمن زمنًا شاردًا ثم قال:

"هاشم. هل تحب سارة بكل جوارحك فعلاً؟"

لم يرد هاشم. تساءل أيمن هل غلبه النوم أم أنه لا يريد أن يجيب. إنه كثيرًا ما يحكي له عن أحاسيسه بالنسبة لكل موضوع وبالذات مشاعر قلبه تجاه سارة لكنه الليلة لا يجيب.

اعتدل أيمن في رقاده وبقى يحملق في الظلام حتى غلبه النعاس هو الآخر.

في هذه الليلة سيحلم أيمن ولكنه كعادته لن يتذكر هذا الحلم مثل كل أحلامه السابقة. فدائمًا يقول أنه لا يحلم عكس هاشم الذي كثيرًا ما يحلم ويتذكر أحلامه لأيام عدة ثم ينساها في نهاية الأمر.

إنها الاحتفالات في كل مكان. تعم البهجة بألوان باذخة الصخب تتراءى له كأقمشة السرادق بمزخرفاتها الإسلامية وكلمتي "الواحد القهار" من قماش أزرق داكن تتكرر كحلية زخرفية مؤطرة على الخلفية الحمراء الكمشيرية. تشع أنوار كهربائية بلا مصدر، نورًا أبيض صافيًا، يتخلل ليلاً رائقًا لا سماء له. مجرد سواد منتشر مُضّبب بهذه الأنوار الباردة. المكان كأنه مكتظ بالناس كأحد الموالد لكنه خاوٍ تمامًا. لا يرى أيمن سوى هاشم بهيئته الجديدة، فتغمره السعادة المستحيلة لأن هاشم قد أصبح أميرًا للمؤمنين، يتزين بعمامة هائلة يتوسطها حجر كريم مشع ألقًا مبهرًا ويتلألأ بألوان مراوغة، وبرداء من مخمل قرمزي غامق مقصب بذهب حقيقي وصديري مطرز وسروال متمنطق بحزام بلفات حريرية تحكم وسطه وتزينه بخنجر مرصع. يتواجهان في هذا الظلام المنير. المسافة بينهما كبيرة جدًا رغم أنهما قريبان بشكل ما. أيمن يراه جيدًا ولكن يبدو أن هاشم لا يراه وينظر لمجهول ما خلفه من جهة اليمين. يُخرج هاشم مسدسًا من نطاقه ويمسك به ليصوب على ما لا يراه أيمن. فكر أيمن أن الأمير معرض للاغتيال. المسدس في يد هاشم محسوس لأيمن بدرجة لا تصدق وكأنه هو من يمسك به...... مقبض ممتلئ، ماسورة قوية وطرف منسحب أملس، يكاد يكون أداة حية تنبض بدم حار. يصوب هاشم بوجه لا يبدو عليه أي انفعال أو إحساس ويضغط على زناد مسدسه فتنطلق قذيفة ويتصور أيمن في لحظة برقية أن الشيء الخفي خلفه إنسانًا، ثم يدرك أنه لابد أن يكون سارة بلا أدنى شك رغم احتجابها وراءه. يحفزه شعور مبهم لكنه مقبول تمامًا لديه أن يندفع في اتجاه القذيفة ليتقبلها هو، فيسرع.......

هنا يسود الظلامُ الكائناتِ وينسحب عالم الحلم وتتتابع موجات النوم الهادئ.

ستتراءى أشتات من هذا الحلم مرة أخرى لأيمن في الوقت المسحور بين النوم والاستيقاظ ليُعَيشه ثانية في صراع أحداثه ثم يختفي الكل في عالم اليقظة وسينساه في تمام الاستيقاظ ولكن سيظل وقع خيالات هذا الحلم يجثم على روحه ما تبقى له من حياة.

الأندلس فبراير 1950

الجنة في السادس والعشرين من فبراير

حبيبتي نعمت:

أه. أنا في النعيم يا نعمت! تصوري تلك الرحلة مع الفرقة أوصلتني إلى حيث لم أتخيل. نعم. أحب! أحبه. لن أتركك تموتين من الدهشة ولن أطيل إشفاقًا عليك من فضولك. رجل. رجل حقيقي. لن أصفه كآلهة الإغريق وملائكة الرب أو حتى كأمراء الأحلام كما نقول كل ليلة على المسرح في الروايات التي نشخصها. سأقول فقط: رجل. رجل مصري. جلمود صخر منحوت من مرمر أسوان لكنه مصقول وحُنين مثل نعومة آلاف السنين من جريان الماء على صخور النيل.

هل مازالت السماء تخلق مثل هذه الكائنات؟؟

تجمعنا أشياء لا حصر لها. نعم نعم هو مصري، لكنه مثلي من أصول مغربية. يعني... هكذا قال لنا أهلونا. من مئات السنين ممكن؟! قد نكون نحن الاثنين من الأندلس مثلاً. دعيني أشطح بخيالي كما أريد. في الجنة نحن أحرار في رسم ماضينا. ماض مغاير لما أحب أن أهرب منه. أنت تريدين أن أقص عليك منذ البداية طبعًا. لكني لن أستطيع، فالأحداث تكاد تختلط عليّ الآن.

أقص عليك أنه صمم على دعوتنا لزيارة مدينة فاس عندما عرف أننا لن نقدم بها عروضًا مثل التي قدمنا في الرباط وكازابلانكا. اقترح أن نشاهد فاس البالي وفاس الجديد. ذهبنا إلى المسجد الكبير ومدرسة العطارين وحي الملاح الخاص باليهود، عندما عرف أننا – سيلينا وأنا – يهوديات. قال أن رسالة الدكتوراه التي أنجزها في جامعة فؤاد الأول كانت عن نزوح العرب – مسلمين ويهود – من إسبانيا. وأن الجامعة قد أوفدته إلى المغرب وإسبانيا من قبل للتحضير ودراسة الوثائق. وأنه بعد أن ناقش الرسالة وبعد حصوله على الإجازة واللقب عين في سفارة مصر في المغرب كملحق ثقافي.

هل رأيت هدية من السماء أكثر من هذا؟ إن الله كثير الرحمة يا نعمت.

تعلمين أن الفرقة كانت مقررة أن تكمل الرحلة إلى أمريكا الجنوبية، ولكن رغم نجاح الحفلات التي قدمناها في الجزائر وتونس ومراكش، إلا أن الخلاف قد دب بين المتعهد والأستاذ يوسف صاحب الفرقة وبرزت المشاكل المالية، فتم إلغاء السفر. قررنا العودة بحرًا أيضًا إلى مصر. رب ضرة نافعة كما تقولين. لولا هذا ما كنت الآن أنا ومحمود هنا في هذه الجنة. نعم. اسمه محمود حفني. من عائلة عريقة في صعيد مصر ولكنها مستقرة الآن في القاهرة. يقول أن أمه من أصل مغربي كما قلت لك. ونحن – محمود وأنا – (الله ما أمتع كتابة اسمه والنطق به) نقف أمام جامع قرطبة وشجر البرتقال في الخارج تضوع منه روائح زمن بعيد، لكنه طازجًا مثلها، وفائحًا في الجو، قال لي:

– سميحة. أشعر أنني أعرفك منذ زمن بعيد. في هذا المكان كنا نقف أنت وأنا. ربما كان جد لي وجدة لك ينظران لعالم خاسر مجبرين على النزوح منه لانهزام الحرية والحب أمام بطش عيون عمياء لا تؤمن بالحياة أو بالله.

هل تتصورين يا نعمت أنني – أقسم بالله – قد شعرت للحظة أننا كنا فعلاً نقف أمام النهر والجامع من خلفنا ونحن نرجع له البصر حسرة لأننا لا نرى أرضنا هذه مرة أخرى. قد تسخرين مني! – لأني لن أسمح أن تسخري من كلامه هو – لكن هذا هو ما شعرنا به.

هل تتصورين حدثًا كهذا؟

نعم هو حالم وجميل، وله قلب طيب يكاد لا يتناسب مع جبروت جسده...... وداعة عينيه ورجاحة عقله.

اسكتي تمامًا. نعم لي الحق أن أمتدحه كما أريد، لأني لا أتخيل خصالاً حميدة لا توجد به. سترينه وستحكمين بنفسك. أريد أن أقص عليك كل لحظة منذ أن لمحته لأول مرة. أنت تعلمين كم هو جميل الحكي عن الحبيب، ثم أنك طوال العام الماضي لم تكوني تتكلمين معي إلا عن أنور وحبك له وحبه لك. أنور أنور أنور، العام الماضي كله. إذن دعيني أكمل.

حكيت له كل شيء عني عدا ما وصل إليه يوسف أخي، وبأنني عندما عدت وحيدة إلى مصر شجعتني سيلينا صديقة أخي على الالتحاق معها بالفرقة المسرحية وأني أقوم بأدوار صغيرة طوال هذا العام وهو ما ألهاني كثيرًا عن الأحداث المفزعة التي عشتها، وفقداني لأبي وأخي وصديقي إفراييم الذي كنت أعتبره مثل يوسف... آه، عندما أتذكرهم يا نعمت أكاد أموت حسرة. لكم كنت أتمنى أن أراهم معي ننعم جميعًا بحياة صافية هادئة. لكن هذا ما كتبه الله وغباء البشر، لذا أقدر في محمود تعقله، وبمقدار أحلامه يأتي حلمه ورزانته وبساطته.

في حي اليهود في قرطبة حيث تنتشر الحرف اليدوية والصاغة، تمشينا تحت شمس خجول تناسب شهر فبراير. دخلنا أحد الحوانيت فلفتت نظري دلاية في نهايتها حلقة داخلها نجمة داوود ذهبية متداخلة وبداخلها وردة سداسية صغيرة. سألني: هل تعجبك؟ بصراحة أربكني سؤاله وخفت أن يشتريها لي فأحرجه غير أنه ابتسم قائلاً: إنها تعجبك. أليس كذلك؟ فأومأت بنعم. فقال: وما رأيك في هذا الصليب؟ أن زوجة رأفت صديقي حبلى وأريد أن أشتريه للمولود القادم. فقلت وأنا أتأمل الصليب: إنه جميل وغريب أيضًا ولم أر هذه النقوش من قبل. أشتري الاثنين ببساطة. النجمة والصليب. ثم التقط سلسلة مفاتيح في نهايتها "لا غالب إلا الله" ثم قال لي: أما هذه فهي لي. أستحق أن أهادي نفسي أنا أيضًا. احترت يا نعمت وارتبكت أمام كل هذه البساطة والبشاشة والرقي. قد تظنين أنه إعلان ساذج، أو أنه فعل هذا أمامي متعمدًا، لكني متأكدة من رحابة روح هذا الشخص وصدقه. هذا الرجل الذي أحبه. أ ح ب ه يا نعمت. إن به إيمان حقيقي بإله رحمن يشمل الكون كله برعايته وعندما قلت له رأيي فيه، قال لي: إنني أحب لفظ الرحمن بشدة وأتمنى لو لي طفل لكي أسميه عبد الرحمن، لأني أشعر أن هذا الاسم يلخص الحياة كلها. فهو يشمل قطبي الوجود بالنسبة للإنسان. الإنسان والإله في اسم واحد. والكلمة التي تدل على الإله هي أكثر صفة يتطلع إليها ويرجوها الإنسان من ربه وهي ترفع من عبوديته لأنها منسوبة لهذه الصفة الإلهية. كلمني عن اختلاف الفقهاء عن الفرق بين الرحمن والرحيم، وأيهما تشمل رحمة أشمل. كلامه ساحر يا نعمت. حكى لي كيف أن بعض الفقهاء اعترضوا على قول حنّان على الله لأنهم ظنوا أنها من الحنين والله يتعالى عن الحنين لشيء ولكنها من الحنان. آه يا نعمت نتكلم كثيرًا. كنز لا ينضب. ها. هل أحببتِه أنت أيضًا؟ كم أريد أن تتعارفا يا صديقتي العزيزة. لقد حكيت له عنك وأنك كنت معي في المدرسة قبل أن نهاجر إلى فلسطين. نعم لقد امتدحتك أمامه.... عملت بأصلي... بصراحة قلت له كم كنت أختًا حنونًا لي فيما مررت به من أحداث قاتلة... لكن حسبك لا تغتري هكذا. كما.... سمحت لنفسي أن اقص له عن أنور..... وحبكما. ستظل هذه النجمة التي أهدانيها – ما حييت – على نحري، محمية بين نهدي.

الرحلة إلى الأندلس ممتعة بشكل لا يعقل، رغم أثار الحرب الأهلية التي دارت هنا.. فالمكان كما قلت لك هو الجنة ولهم قصر بجانب قصر الحمراء اسمه جنة العريف. المكان ساحر يستعلي على الوصف.

قابلتنا سائحة أمريكية عجوز، عندما كنا نسير متجاورين في حدائق القصر، وسألتنا إذا كنا قد رأينا المجموعة التي جاءت معها. وفعلاً كنا قد لمحناهم لأن عدد السائحين لم يكن كبيرًا في هذا الوقت من العام. فقلنا لهم إننا قد شاهدناهم منذ فترة فقالت:

– أخاف أن أتوه. هل لي أن أتطفل وأصاحبكما؟

فأجاب محمود مبتسمًا لها برقة:

– بكل سرور.

تجولنا نحن الثلاثة. وتحدثنا عما نراه ثم خطر لها أن تسألنا:

– من أي بلد أنتما؟ لقد حاولت أن أخمن ولكني فشلت.

فقلت:

– من مصر.

فقالت بفرحة واضحة وصادقة:

– مصر. يا لها من بلد جميل. لم أكن أتصور أن مصر بلد واقعي إلا في حكايات الكتاب المقدس. كانت مصر بالنسبة إليّ بلدًا أسطوريًّا من أزمنة غابرة. أقرأ عنها فقط. ولم أكن متأكدة حتى من وجودها الحقيقي المعاصر إلا عندما زرتها منذ خمسة أعوام. يا إلهي. يا لها من بلد.

فقال محمود باعتزاز بيّن وهو يقابل مديحها:

– نعم لك كل الحق. إنها بلد رائعة فعلاً لمن يعرفها، بصحيح كيانها.

ثم أكمل بخجل كمن اكتشف أنه يمتدح ابنه الذي يحبه أمام غرباء قد لا يقدرونه حق قدره، فرد المديح بمثله:

– وأنتم أيضًا أمة كبيرة.

فقلت أنا:

– إنه لقاء بالصدفة بين أقدم الأمم وأحدثها.

ابتسمت العجوز وقالت:

– والعجيب أن أمثل أنا من تجاوزت السبعين هذه الأمة الوليدة وتمثلان أنتما أعرقها.

نظرتُ إلى محمود وأنا أرمقه بإعجاب. أي برهان حي أصدق منه يدل على مصر. فهو كما وصفت لك هيئته، لكن أنا أعني ما وراء هذا الشكل، هذه الروح الفياضة. إنها أشبه بجمال صوت ليلى مراد. تضحكين ولكن هل تدرين كم هو رائق هذا الصوت البديع وأصيل. إن روحه تأسرك كما يأسرك صوت ليلى.

أكملنا سيرنا وهما يتحدثان. سألها هل كانت ضمن من شجع إعادة انتخابات الرئيس ترومان ضد ديوي الجمهوري، وأنا شاردة فيه، أنتبه بين الحين والآخر على ضغطة خفيفة من يده، أو وهو يشير إليّ ليلفت انتباهي إلى نقش جميل على حائط، أو عصفور طائر، أو أي من هذه التفاصيل الصغيرة الجميلة التي تجذب انتباهه. ولقد لاحظت أنه لا يقطع حديثه أبدًا مع السيدة جونسون – هذا هو اسمها – وهو يأتي بهذه الإشارات الرقيقة لي.

وقفنا أمام نقش بديع من الكتابة العربية، قد تكون آية قرآنية.

تأملناها بصمت وإذا بالسيدة جونسون تقول:

– لابد أنكما غير منبهرين بما ترياه.

فالتفت إليها محمود مندهشًا:

– لم؟

– لأن عندكم أعظم حضارة آثار في العالم.

فقلت أنا:

– الموضوع ليس بالقدم ولكن ألا يستحق الجمال في أي مكان وزمان أن يقدر. نحن نستطيع أن نشعر بالجمال عندما نراه، ونقدر صانعه.

وأكمل محمود:

– الجمال كله متواصل. قد يختلف لكنه متواصل.

فأجابت السيدة جونسون:

– أنا لم أعن هذا. أنا أقصد قدم الأشياء.

ثم أضافت ضاحكة:

– اعذراني. في سني هذا، أرى الآثار بمنظور مختلف. كأني أنا نفسي أثر.

فقال محمود:

– الحقيقة أنني ينتابني شعور عجيب كلما زرت الأندلس وشاهدت أثاره. قد ترين هذه التحف المعمارية وتقدرين جمالها يا سيدة جونسون، لكن أنا أستطيع أيضًا قراءة هذه النقوش. أنت ترين خطوطًا متداخلة تشع جمالاً هندسيًا وقيمًا جمالية مبهرة، لكني أستطيع قراءتها، إنها ليست هيروغليفية مغلقة بالنسبة إليّ. أنا أقدر الحضارة الفرعونية جدًا وأرى أنها كانت أقوى حضارة على وجه الأرض حتى الآن. لقد ظلت محتفظة بروحها أكثر من ثلاثة آلاف عام. فرعونية تمامًا. لم تحظ أي حضارة بكل هذه العبقرية البادئة لكل شيء تقريبًا، ورغم أوقات الانكسارات لكنها ظلت

إلهامًا لا حدود له. لقد كانت قوية واستطاعت أن تفرض نفسها على العالم كله حتى الآن، ومازالت موجودة في طقوس المصريين، أبوا هذا أم شاءوه. لكن تخيلي إنسانًا من مصر القديمة يقف وحيدًا بعد اندثار حضارته ويستطيع أن يقرأ الهيروغليفية ولكنه يدرك أن حضارته قد اندثرت واختفت.

فقالت السيدة جونسون:

– ولكن يوجد أناس كثر يقرأون الهيروغليفية الآن. فما أكثر علماء المصريات.

– نعم. أعلم هذا. لكن أنا أقصد شخصًا ينتسب حقًا لهذه الحضارة. أنا ما زلت أنتسب لهذه الحضارة التي اندثرت من هذه البلاد تمامًا.

ثم صمت وأضاف:

– أنا هنا لا أقصد الدين الإسلامي. لكنه شكل هذه الحضارة. العربي يشعر هنا أنه خارج التاريخ.

فقالت السيدة جونسون:

– لكن اسمح لي، إن العرب فعلاً خارج التاريخ الآن.

انفعلتُ قائلة:

– إن الحضارات في الشرق قوية. ففي رأيي أن الحضارة الحقيقية في حوض المتوسط. الجنس الأبيض الداكن.. المصريون الإغريق الفينيقيون الرومان، أما حضارة الشمال الوليدة – حتى ولو كانت منذ ثمانمائة أو حتى ألف عام مثل الإنجليز والألمان وأمريكا الشمالية كالحة وقد تبهت سريعًا ليس مثل الشرق.

وكدت أقول مثل أهلها كالحون، تتصورين يا نعمت لكنني تنبهت سريعًا، فلقد أمسك محمود بيدي وقال بعربية سريعة:

– رفقًا بالعجوز!

فأكملت كلامي:

– إن حضارات الشمال غير متسامحة وبداخلها عنصرية كئيبة. هل نسيتم ماذا فعل أسبان الشمال بنا – يهود ومسلمين – أو ما حدث لليهود من ألمانيا النازية.

فقال لي محمود:

– يا سميحة. كانت توجد بلاد، أما الحضارات فهذا شيء آخر، من ينكر الفلسفة أو الموسيقى الألمانية مثلاً؟

وفي نفس الوقت قالت السيدة جونسون:

– آه. معذرة. أنا لا أفهم. أنتم يهود ومصريون أم عرب مسلمون؟

كانت تنظر ساعتها إلى النجمة المدلاة على صدري.

فقالت لها:

– نحن مصريان. محمود مسلم وأنا يهودية. قد لا تعرفين أنه يوجد كثير من العرب المسيحيون واليهود وهم بالطبع ليسوا مسلمين. فلأن الشرق متوافق من الممكن أن تشاهدي كل الأديان متعايشة ببساطة.

فقالت متعجبة:

– ربما. الشرق غريب فعلاً. لا أفهم. كنت أظن أنكما في حرب.

وقبل أن أجيب. أنهى محمود الموضوع قائلاً:

– نحن في حالة حب.

ابتسمت السيدة جونسون وأكملت سيرها حتى أوصلناها إلى فندقها القريب من فندقنا.

لكني لاحظت يا نعمت أن محمود شاردًا ومكتئبًا وعندما سألته ما به قال:

– سميحة. إن إسرائيل ستحيل الشرق كله إلى جهنم. إن التعصب الديني سيحول العالم إلى كارثة.

– لكن مصر محمية يا محمود. ألم تر عندما نشر كتاب "لماذا أنا ملحد؟" كان الرد عقلانيًا. إننا قادرون على حماية أنفسنا من التعصب. مصر تتقبل كل شيء.

فأمسك بيدي وقال:

– إن زرع بلد بالقوة قائمًا على أساس ديني ودخول هذا البلد في صراع مع الدول المجاورة ستجعل رد الفعل هو التعصب. سترين أن الجماعات المتعصبة ستظهر في كل فئة.

فقلت وأنا حزينة جدًا يا نعمت:

– كان الله في عوننا جميعًا.

نعمت! أنا خائفة وسعيدة في نفس الوقت. ولست أعرف ماذا أفعل. سأقول له كل شيء عن يوسف أخي. أنا أخاف أن يتحقق ما يخشاه ولكني أرى أنه يتحقق، لقد هربتُ من هذا كله، لكنه سيطولني.

الخبر السخيف: تركتنا سيلينا في إسبانيا ومنها ستذهب إلى إسرائيل. حتى سيلينا. أمجنونة أنا يا نعمت؟ وهجرة سيلينا أصابت محمود بالحزن أكثر..... لكننا نحب. هل ينقذنا الحب يا نعمت؟

سنتزوج في القريب العاجل. كل شيء جميل جدًا ومخيف جدًا. إنه رائع وأنا أحب. أحب. أحب

قبلة كبيرة حتى أراك

سميحة

ملحوظة:
ادعي لي يا نعمت. ادعي لنا جميعًا.

أورشليم إسرائيل مايو 1948

كان يوسف إبراهيم ليفي يجلس مشتت البال في بيت "شلومو جدعون" وسط مجموعة من الأصدقاء يلتفون حول جهاز الراديو العملاق الموضوع على منضدة عالية في ركن الغرفة المكتظة بهم يستمعون إلى إذاعة أراجون تسفاي ليومي السرية من تل أبيب. اقتربت "ليا" أحت شلومو من يوسف وجلست على حافة المقعد وسألته:

– أراك شاردًا. ما بك؟

فرفع نظره إليها وانتابه شعور بعدم الراحة لجلوسها بجواره فلطالما نفر منها بلا سبب واضح، ربما لتدخلها في أمور كثيرة... ربما لقوامها الرجولي رغم إعجابه بحماسها المتوقد لأفكار الجماعة وبمهارتها العالية في السلاح، ثم قال:

– طبيعي! أعلنت الدولة أمس ومناحم بيجين سيلقي خطابًا هامًا بعد قليل.

فقالت:

– نعم. أعلم بالطبع ما نحن مقدمون عليه. كسبنا حرب العصابات ولكننا سنواجه جيوش الأعداء من الليلة، لكن ليس هذا سبب شرودك.

ثم وضعت يدها على شعره وهي تكمل:

– ألم تجد أختك بعد؟!

تمتم قائلاً وهو يشعر بالإحباط التام وكراهية لا حد لها ل "ليا" لأنها سألت عن سميحة:

– لا.

فقالت:

– هل صحيح أنها قد عادت إلى مصر؟ لقد سمعت بهذا الأمر.

ود لو تخرس ولا تتكلم لكنه هم بالرد عليها فقاطعهما "ناتان فريدمان" قائلاً:

– سيبدأ بيجين الآن، فلتصمتوا جميعًا.

قامت "ليا" وابتعدت عنه وكادت تلتصق بالراديو لتستمع للخطاب. جاء صوت بيجين معدنيًا عبر الأثير:

"بعد سنوات طويلة من حرب المقاومة، سنوات عديدة من الاضطهاد والمعاناة الروحية والجسدية، يقف المتمردون على الطغيان أمامكم الآن وآيات الشكر على ألسنتهم....."

شرد يوسف رغمًا عنه. لقد كان يريد أن ينصت إلى كل كلمة يقولها بيجين ليؤكد له أن الحلم قد تحقق ولكن سؤال ليا عن سميحة جعله أكثر اضطرابًا. تتابعت الصور والخيالات سريعة أمامه، متداخلة بشكل يكاد يصيبه بلوثة، وبدأ عقله يتجزأ وكل جزء يعمل وحده وهو نصف مدرك لكل هذا.

الليلة. السبت. **15** مايو. قيام الدولة. الناس الملتفون حولي، صوت الراديو. أقسمُ إنني ما أردت أبدًا جرح سميحة، فهي قلبي الذي لا أملكه ولكن أمام الحق والرب.. أيهما أولى؟ هي تكيدني. تقول أشياء لا تعيها. هي لم تر ما رأيته أنا... حلم الرجوع. فتحت روحي لأجلها هي. هي من أحب. كيف هنتُ عليها وتركتني. أهدي إليها وطنًا فترفضه هي. أي غفلة كنتُ أرتع فيها حتى رأيت الحقيقة؟ تقول مصر بلدنا.... نعم ولكن بعد أن نستردها كما وعد الرب: الأرض لنا. إسرائيل الكبرى... ألا تحلم بالسيادة؟!! عندما قال لي شمعون هذا في المدرسة في مصر لم أتمالك نفسي إلا عندما بشرتهما بما قاله. ضحك أبي، أما هي فقالت إنك تتعصب مثلهم. إياك! عن أي حلم تتكلم؟ غامت الشمس يومئذ. عزمتُ أن أقنعها بهذا مهما طال الزمن عندما تراه أمام عينيها. لكنها لم تنبهر بالوطن الذي أستعيده لها. ها هي تعود إلى مصر، رغم أنها طاوعتني على الهجرة منها من قبل. عندما سمعت شمعون يقول في نادينا في إحدى انفعالاته (إن فئة لم تكن معروفة للعالم طوال ما يربو على ألف وثمانمائة عام. فئة جديدة من الجنس البشري اسمها "اليهودي المحارب" الذي ولد من الدم والنار والدمع والرماد، إنه اليهودي الذي ظن العالم أنه مات وقُبر ولن يبعث: قد هب). قالت له "هذا كلام لا يقوله سوى ضيقي العقل. فالأرض فعلاً لنا. كل الأرض والرب قد وهب العالم كله لنا وليس مكانًا معينًا، نحن نعيش في كل مكان".

فقال متحديًّا:

– وشُتتنا في كل العصور. وقُتِّلنا في كل مكان.

فأجابته ساخرة:

– ربما من المكان الذي جئت أنت منه.

فقلتُ لها غاضبًا أدافع عن شمعون:

– لكنهم يتهموننا أننا نصلي مثل المسلمين. يقول عنا مسلمي اليهود.

– ولكننا فعلاً نصلي مثلهم. ما المانع؟ بالأحرى هم من يصلون مثلنا. هم يعترفون بديننا. لا تدع الآخرين يشوشرون عليك.

فقلت:

– إنكِ تتكلمين مثل إفراييم.

– نعم لأنه على حق.

ثم التفتت إلى شمعون قائلة.....

صاح شلومو جدعون فجأة: نعم نعم

أكمل بيجين خطابه "لقد وضع الأساس – مجرد أساس فقط – للاستقلال الحقيقي. انتهت مرحلة من مراحل المعركة من أجل عودة شعب إسرائيل قاطبة إلى أرض الوطن. معركة استرجاع أرض إسرائيل المقدسة إلى أصحابها الذين وعدهم الله بها. وما تلك إلا مرحلة واحدة فقط. هبت دولة إسرائيل....."

نعم نعم سنأخذ الأرض من تلك الحيوانات العربية التي ترعى فيها. أتكون سميحة تحب عربيًّا ما؟ إنها لا تحب إفراييم رغم حبه لها. أتكون عاشقة لسالم، إنها تحب الخروج معه كثيرًا تقول عنه إنه مرح وصريح. لكن لا، إن قلبها في مكان آخر. آه يا سميحة يا ابنة أمي. أقدم لك وطنًا فترفضين. حاولت أن تلهيني عن شمعون ومجموعته في مصر. أوحت إلى سيلينا أن تحاول أن تدخلني مع صديقها في عالم السينما وكدت أندفع فيه، لكن أفقت سريعًا. أنقذني الرب. ادخرني للمهمة الصعبة. استرجاع الأرض. وافق العالم أو أبى. اللعنة على الإنجليز. كانت عملية فندق الملك داوود ضربة قوية منا إليهم. من يساعدنا إذا ظنوا أنفسهم على الحياد! لعنهم الرب ألف لعنة. وافقوا على الخطة، سهلة. كأنهم محايدون بيننا وبين العرب، يعلنون إنهاء الانتداب اليوم 15 مايو ولكنهم انسحبوا ببساطة أمس قبل أن يدرك أغبياء العرب. هذا الفرق كان في صالحنا تمامًا. أمس كان يومًا حاسمًا. يوم الرب بحق. انسحب الجيش البريطاني من المدينة الحديثة في أورشليم، ونستلم منه نحن وتحت حمايته. انتاب العرب الهياج واللوثة، تجمعوا سريعًا في سيارات اللوري ومعهم بعض البنادق. نحن كنا أكثر حذرًا وحيطة وذخيرة. انطلقت النيران في كل اتجاه. ما رأيت أمس شيئًا يتحرك إلا وقذفته بالرصاص، حتى الحيوانات التي لا تفرق عن العرب كثيرًا. أردت أن أطهر الأرض منهم. أنتقم من كل من أخرجونا منذ السبي الأول. أطلق رصاصي على البابليين والفراعنة والعرب. ولو

طلت لقذفت كل الأجناس بناري. قطعنا كل اتصال بين العرب. حاصرنا القدس وأحكمنا الحصار. فليموتوا جوعًا أو حرقًا أو تقتيلاً.

انتفض يوسف وهو يتذكر أعمال العنف أمس فاهتزت المنضدة بجانبه وسقطت منفضة السجائر على الأرض ولكنها لم تنكسر. التفتوا إليه بغتة ثم أكملوا الإنصات إلى الخطاب.

"....... حيث يوجد **600** ألف يهودي في أرض الوطن، وحيث أمكن طرد الطغيان المباشر من جزء، من إقليم كله ملك لنا. كان من الصعب أن نقيم دولتنا، إلا أن المحافظة على بقائها أصعب من إقامتها. إننا محاطون بالأعداء الذين يتمنون هلاكنا. إن الباغي الذي هزمناه هزيمة مباشرة يحاول هو نفسه، بطريق غير مباشر أن يجعلنا نستسلم، بمساعدة المرتزقة من الجنوب ومن الشمال ومن الشرق. إن دولتنا البالغة من العمر يومًا واحدًا...."

هؤلاء المرتزقة سنمحوهم. ذهبت سميحة إليهم. أعداد كبيرة وغباءً أكبر. نحن الأدهى دائمًا. مرتزقة الجنوب. المصريون سنخضعهم.

"أنت مصري."

تغيظني ابنة أمي التي أحبها حتى الموت. ربما تخاف عليّ. أجيبها حانقًا: "أنا يهودي. لا أنتمى أي انتماء قومي ما دامت كلمة الرب ستتحقق ووعد الذي لا يحنث أبدًا يُخلق أمامنا، نراه رؤي العين. أنا يهودي وهذه أرضي."

ترد غاضبة وتنادي على أبينا:

"لا! أنت أصبحت صهيونيًا."

أجيبها ثائرًا:

"هذا كلام العرب."

"كأنك لم تعد من القرّائين."

"اللعنة على كل يهودي لا يؤمن بالعودة إلى أرض الرب."

يأتي صوت أبينا:

"يا بني، لم يقل الرب: اقتل."

"لا! بل قال."

إفراييم الآخر! غبي هو . قاوم الصهيونية قدر استطاعته، ها هي مصره الحبيبة تطرده لكونه يهوديًا. الأغبياء يستحقون حياتهم، عندما أتى في الشهر الماضي حاولت أن أريه الحقائق، كان منهزمًا لهزيمة ما يؤمن به. عندما أخذته معي وعرفته على فرقتي لم يرتاحوا إليه، وهو أيضًا لم يتقبلهم.

عندما اصطحبناه للهجوم على القرية العربية لطردهم وإخافتهم، ظل ينتفض وهو يرانا نقتل أهلها ببساطة، وعندما حاول منعي أطحت به ورميته بعيدًا. قام هائجًا وأمسك بي وهو يقول:

"بحق حبك لسميحة يا يوسف لا تقتل. لا تتحول إلى قاتل. نحن لسنا قتلة. أنا أعرف أنك تحبها بحق، تذكر أيامنا معًا ونحن صغار. لو عرفت سميحة أنك قاتل ستموت."

ثم رأيت يانوفسكي ضاحكًا وهو يشاهد أسرة عربية تفر من رشاشات الرصاص التي يطلقها ثم وهو يلتفت إليّ ويرانا وإفراييم متشبثًا بي محاولاً تقييد حريتي وإمساكه بطرف البندقية. أدرك يانوفسكي ما يحدث فأطلق رصاصة أصابت إفراييم في ساقه اليمنى فانتفض إفراييم ثم تشبث بي للحظة ثم سقط أرضًا وهو يقول:

"جئت لأنقذك من نفسك."

نظرت إليه بذهول. هذا الذي ينزف تحت قدميّ هو إفراييم صديق طفولتي. أنا لست تحت وطأة كابوس ما. أكمل بروح مشروخ:

"اعتذر لسميحة بالنيابة عني، وقل لها أني قد فشلت في مهمتي."

رأيتُ يانوفسكي يتقدم سريعًا في اتجاهنا تاركًا الأسرة المفزوعة تفر بعيدًا، وعندما وصل إليّ صاح بي:

"ألم أقل لك؟ اقتله."

لم أتحرك وظللت أحملق في إفراييم ولا أرى سوى دماءه التي تمتصها الرمال والصخور تحته. أعاد يانوفسكي الصراخ:

"اقتله. هذا أمر عسكري. اقتله."

لم أكن أنا من أطلق النار على صدره، وأيضًا لم يكن يانوفسكي. أنا وجدت فوهة بندقيتي مصوبة تجاهه وهو ميت تمامًا والأرض حمراء حولنا. شدني يانوفسكي من ذراعي، لم أقل شيئًا لسميحة. لكنها عرفت، لست أدري من من. مات إفراييم لكن كل شيء يهون في سبيل الرب والأرض.

هزته "ليا وهي تقول:

"يوسف. أهذه دموع التأثر بخطاب بيجين؟ يالك من رومانسي شرقي."

فقال يانوفسكي مشوشرًا على صوت المذياع:

"لكنه قاتل محترف أيضًا."

تعالت الأصوات:

"صه، صه. دعونا نسمع باقي الخطاب."

"لا يمكن أن نشتري السلام من أعدائنا بالمصالحة. أن هناك نوعًا واحدًا من السلام يمكن أن يشتري – إنه سلام المقبرة، سلام (تريبلينكي). ولتكونوا شجعانًا في هممكم، مستعدين لمزيد من الابتلاء، ولسوف نصمد وسوف يكون الله في عوننا، يحفظ الشباب العبري الباسل، ويعين الأمهات العبريات على تقديم أولادهن – كما فعلت "حنا" – إلى مذبح الرب. وأنتم يا أخوان الأسرة المحاربة، هل تذكرون كيف بدأنا؟ لقد كنتم وحدكم مضطهدين منبوذين محتقرين، بل كنتم في عداد الآثمين المخطئين المعتدين، لكنكم حاربتم بإيمان راسخ فلم تولوا الأدبار. ولقد عذبتم ولكنكم لم تستسلموا، وألقي بكم في غياهب السجن ولكنكم لم تخضعوا، وأرسلتم إلى المنفى ولكن همتكم لم يعترها أي وهن، واتخذتم إلى المشانق فتقدمتم إليها وأنتم تغنون. لقد كتبتم صفحة خالدة في التاريخ. إنكم لن تذكروا آلام الماضي، ولن تطالبوا بالجزاء وفاق أعمالكم. لكن دعونا نفكر حاليًا في المعركة لأن نتاج هذه المعركة هو الذي سيقرر مصيرنا...."

قام يوسف فجأة ولم يكمل الاستماع إلى باقي الخطاب. خرج من الشقة دون أن يلتفت إلى أي منهم. حاولت "ليا" أن تلحق به إلا أنا شلومو أخاها أشار لها بيده أن تدعه، فجلست وتابعته حتى اختفى. سمعوا الباب وهو يغلق بهدوء.

واجه يوسف ليل مظلم بارد أصابه بقشعريرة لأنه أحس أن جسده كله ملتهب. كانت البلدة مهجورة كلية. تتابعت أصوات خطواته على صخور الشارع مؤكدة له الظلمة التي تحيطه وترسخ يقينه بالأصوات الماضية. تلاحقت الصور سريعًا، وصدى صوت "ليا" وهي تقول يا لك من شرقي ورومانسي، متداخلاً ما يانوفسكي وهو يقول قاتل محترف. ظل سائرًا متحسسًا الجدران الباردة بيده لتدله على الطريق. سميحة لم تعد معي. فضلت الهروب مني. من الحلم. أبي عليه اللعنة هو السبب. قتلت إفراييم وبيجين يقول أن ناتج هذه المعركة هو الذي سيقرر مصيرنا ومستقبلنا.

توقف وشعر بألم حاد في يافوخه. رفع رأسه في هذه الليلة الحالكة لسماء لا تتواجد، خواء تام. تحسست يده مسدسه. أخذ شهيقًا عميقًا وترك الهواء يخرج بهدوء..... مستقبلنا...

أخرج المسدس ولم يره، رفعه في اتجاه رأسه. أحس بملمس المعدن البارد على فوده ثم أطلق رصاصته الأخيرة.

الإسكندرية أغسطس 1979

كان الكورنيش خاويًا تقريبًا لبشاعة وطأة الحر والرطوبة. قاد هاشم السيارة بسرعة كبيرة أملاً في نسمة هواء قد يقتنصها. لشد ما يكره العرق الذي يحوله إلى بحر. فعلاً إنه يوم شاطئ لا يُفوّت. ذهبوا جميعًا منذ الصباح الباكر إلى كابينة إسماعيل في شاطئ كليوباترا في المنتزه. أطفأوا لهيب اليوم من البحر وعندما أذن لصلاة الجمعة، أسرعوا بأخذ حمامات سريعة وهرعوا إلى الجامع المقام أمام فندق فلسطين فلحقوا بالصلاة قبل أن تبدأ.

وعند رجوعهم إلى الكابينة صاحت هدى:

"من من الحلوين سيأتي بسارة ونيفين الآن؟ باقي نصف ساعة وتنتهي نوباتجيتهما."

فهب هاشم قائلاً:

"أنا. لقد اتفقت مع سارة على هذا بالأمس."

فقال أيمن:

"سآتي معك، حتى لا تذهب هذا المشوار وحدك."

تردد هاشم قليلاً ثم قال:

"لا داعي لهذا. شكرًا. فلن نتأخر. ثم ألن تكن تنوي الصيد في فيلا الرئيس؟"

فقالت هالة وهي تشد وداد:

"نعم. هيا. سنذهب للصيد."

وافق أيمن على عدم مصاحبة هاشم ورافق من يريد الصيد إلى طرف الخليج على الصخور حيث فيلا السادات. وأسرع هاشم إلى السيارة. لقد أمضى ليلة أمس كلها في إقناع أخيه فؤاد بإعارته سيارته الجديدة التي اشتراها أبوهما هدية لفؤاد بمناسبة تعيينه في كلية العلوم. زادت سرعة هاشم وهو يخشى أن تخرج سارة ولا تجده، ثم تذكر أخاه وقسمه له أن يقود بتعقل.

وصل إلى بوابة مدخل المستشفى الأميري فوجد سارة ونيفين، ابتسمت سارة له عندما أشرق وجهه فجأة برؤياها. صعدا السيارة فبادرهما قائلاً:

"صباح الخير."

ردت سارة:

"صباح النور."

بينما قالت نيفين:

"خير!!! تلك كانت نوباتجية لا يعلم بها إلا ربنا. أكاد أموت من التعب والإجهاد، لتسرع أرجوك يا هاشم. ثم ما هذا الحر!؟ جهنم يا الله! ليلة كلها مرضى لا ينامون وصباح غارق في العرق."

فقال هاشم ضاحكًا:

"مهلا يا نيفين. ثوانٍ ونكون في البحر."

فقالت نيفين:

"لا. أنا منهكة تمامًا. إلى البيت أرجوك. اذهبا أنتما كما تشاءان."

التفت هاشم إلى سارة وهو يقول:

"وماذا عنك؟ هل كانت النوباتجية سيئة في قسمك أنت أيضًا؟"

تمطت سارة فاردة ذراعيها وقالت:

"إلى حد ما."

كانوا قد اقتربوا من بيت نيفين في الحي اللاتيني وعند توقف السيارة قفزت نيفين منها قائلة:

"اعتذروا للآخرين بالنيابة عني. سلام."

انطلقت السيارة فقالت سارة:

"هاشم. هل لي أن آخذ حمامًا سريعًا قبل أن نذهب، كما يجب أن أبدل ملابسي."

"بالطبع."

أوقف السيارة أمام بيتها الذي لا يبعد كثيرًا عن بيت نيفين، ثم قال:

"سأنتظرك هنا. لا تتأخري."

فقالت معترضة:

"في هذا القيظ غير المحتمل! لا! هيا فلتصعد معي، لن نتأخر لا تخف."

لم يكن قد دخل بيتها منذ أن عزاها في وفاة والدتها منذ ثلاث سنوات تقريبًا. تردد قليلاً ثم أغلق السيارة وصعدا معًا. دلفا في ظلام بارد محبب كأنهما يهربان من واقع مخيف. أتى النور متقطعًا من خلال الخصاص فتقدمته وهي تقول:

"تفضل. لن أفتح الخصاص حتى لا يهاجمنا الصهد. لن تنتظر طويلاً. ثوانٍ."

اختفت في الممر وجلس هو في الصالون. تأمل الصورة المعلقة وجاءه نفس الشعور بأنه قد رأى السيدة التي في الصورة في مكان ما من قبل. أتاه صوت سارة من الداخل:

"لدي كركديه بارد في الثلاجة."

فأجابها رافعًا صوته:

"شكرًا. في ما بعد. عندما تنتهين من حمامك."

واجه الصورة... هاتان العينان لسارة ولكن؟.. تداخلت أطياف راقصة وإيقاعات غنائية حتى كادت أن تتحرك قسمات هذا الوجه وتحيا.

"أمي. هل تشبهني؟"

استدار على صوت سارة ووجدها ببرنسها محبوك جيدًا حولها، تضع صينية عليها كوبان من الكركديه على المنضدة أمامه.

"تفضل."

جلس وتناول الكوب البارد وأنعشه تكثف حبيبات الماء البارد عليه. تناولت سارة كوبها وهمت أن تعتدل غير أن فتحة البرنس انحلت قليلاً فسمحت للسلسلة أن تسقط منها فتدلت نجمة داوود ذهبية للحظات قبل أن تلتقطها يد سارة وتدخلها مرة أخرى في فتحة صدرها. استدارت سارة وهي ممسكة بالكوب وهمت بالرجوع إلى غرفتها وهي تقول:

"ثوانٍ. سأضع فستاني عليّ بسرعة... لقد أنعشني هذا الحمام."

ناداها هاشم بصوت هادئ مدهوش:

"سارة!"

التفتت إليه مرة أخرى. لاحظ نظرة كليلة ووجه متألم يواجهه، جلست أمامه وقالت:

"نعم."

"ما الذي تحمله هذه السلسلة؟"

"نجمة داوود."

هي تدهشه دائمًا. لا يضع أي حدود لما قد تأتي به، غير أنه فرد ساعديه لها متسائلاً:

"وما معناها؟ لم؟"

"إنها مجرد نجمة."

"العلامات تعني أشياء، كما تعلمين. كل علامة تدل على شيء."

"إذًا اتفق الناس على هذا."

"سارة! الناس متفقة على هذه الأشياء. الأحمر تعني السيارة تقف، الأخضر تسير."

"يعني لو رأيتني أدلي صليبًا معنى هذا أنني مسيحية وأنت تعرف تمامًا أنني مسلمة."

"إذن ما معنى هذا؟"

"ألا ترى الأولاد في الشوارع يرسمون صليب النازية المعكوف بلا أدنى معنى سوى أنها علامة."

"سارة! أنت لست مثلهم. لا تقولي كلامًا لا معنى له. لو اختلطت الرموز لفقدت اللغة معناها."

"أنت تظن هذا. ليس من الضروري أن تفهم مثل الآخرين."

"إذن لن أتوقف لو وجدت الإشارة حمراء في الطريق. هذا كلام لا يعقل."

"ما زلت عند رأيي. العلامات نحن الذين نضع لها المعاني. العلامة في حد ذاتها لا تشي بشيء."

"سارة! هذه علامة العدو. إنها موضوعة على رايته."

"الأسود عند شعوب الشمال يدل على الموت والأبيض على الحياة، العكس عند شعوب الجنوب."

"ما هذا التهريج."

صمتت سارة لبرهة ثم قالت:

"آسفة. إنها تخص أمي. وهي عزيزة عليّ. فقد أخذتها من رقبتها بعد وفاتها وعزمت أن أرتديها، لقد كانت هدية أبي لأمي عندما تحابا، اشتراها لها من الأندلس."

"أمك يهودية؟"

"نعم."

"ولكن لا أحد يعلم هذا في الشلة."

"هدى تعرف. ثم إن هذا شيء خاص جدًا. ديانة الفرد موضوع خاص تمامًا. لا دخل لآخرين فيه."

فقال مرتبكًا:

"بالطبع. أنا لم أقصد شيئًا."

"هذه الدلاية لا تعني لي سوى ذكرى حب بين أبي وأمي."

"أبوك يهودي أيضًا؟"

انفجرت سارة من الضحك فجأة فتخلص الموقف من توتره.

"يهودي! أيها الساذج. ألا تعرف أن اسمي سارة محمود حفني؟"

ضحك هاشم متلعثمًا قال:

"لقد أربكتني. للعلامة دلالة طبعًا. لكنك أربكتني فعلاً."

"أرأيت أن العلامة تختلف باختلاف الأشخاص؟"

"لكنك أيضًا لا تستطيعين أن تجاهري بهذا.لن يفهمك أحد."

"لقد أخبرت هدى لأنها تستطيع الفهم. وأنت أيضًا تفهم. انظر إلى أمي، هذه السلسلة هي ما تركته لي."

التفت هاشم وراءه وأعاد النظر إلى الصورة.

"اسمها سميحة أليس كذلك؟"

"نعم. سميحة إبراهيم يعقوب ليفي."

"لولا ليفي لما تصورت أنها يهودية."

قامت سارة واقتربت منه وجلست بجواره ثم أمسكت بيده وقالت:

"أنا آسفة يا هاشم. أعلم أنك مندهش ولك كل الحق لأني لم أقل لك من قبل. ولكن هل سيفرق هذا الأمر معك؟"

"لا طبعًا."

"كنت أعلم هذا."

سكتا للحيظات ثم قال وهو يعيد النظر إلى الصورة:

"ولكن وجهها مألوف لي بشكل لا يصدق. ليس لأنك تشبهينها."

ضحكت سارة وهي تقول:

"لأنها ظهرت في بعض الأفلام القديمة. أدوار صغيرة للغاية."

فعلق هاشم منفعلاً:

"ممثلة؟!"

"لم تكمل هذا الطريق... تزوجت أبي. لكنها كانت تعشق المسرح أكثر، ومثلت أدوارًا ثانية في بعض المسرحيات. في الحقيقة لقد تعرفت على أبي في إحدى جولات فرقة مسرحية بالخارج. تزوجا بعد قصة حب مشتعلة وأنا ولدت هناك في المغرب، لكنه ترك العمل بعدئذ."

"لأنها يهودية أم لكونها ممثلة؟"

"لا أستطيع أن أعرف. لقد رجعنا إلى مصر بعد أزمة **1954**. كان أبي متحمسًا لحركة الضباط كما أسموها، لكنهم تخلصوا منه بعد فترة تحت شعار أنه كان من رجالات العهد البائد. هل كان لأمي أي دخل في هذا الإبعاد؟ لا أعرف. لكن من المؤكد أنهما كانا عاشقين بدرجة خيالية."

ارتجف قلب هاشم لسيرة الحب فقال لها:

"ادخلي بدلي هذا البرنس المبلول حتى لا تصابي بالبرد."

"في هذا الحر؟!"

"إن الملابس المبتلة تؤثر على العظام. هكذا يقول لي فؤاد عندما يراني بالبرنس."

ضحكت سارة وعلقت على كلامه:

"أنا الطبيبة. أما هو فعلى العين والرأس في قسم الحشرات الذي يُدرس فيه."

"أرجوك ادخلي وأكملي لي قصتهما من الداخل."

طاوعته سارة لأنها أحست أنه يريد أن يهدأ قليلاً من الأحداث التي قصتها عليه. دخلت وعادت بعد قليل في فستان مبهج.

"أقول لك شيئًا آخرًا؟"

"أكملي أكملي."

"اعترض أهل أبي على هذا الزواج فلما رجعنا استضافتنا خالة أبي طنط دِدّة، اسمها الأصلي سيدة، التي ذهبنا إلى شقتها عدة مرات عندما كنا نستمع إلى الأسطوانات."

فضحك هاشم وقال:

"وشبيهي الذي من الفيوم."

"نعم."

"أكملي، إنها قصة شيقة."

"كان أبي محبًا للأدب كما تعلم. أراد أن يكتب لها مسرحية بعد زواجهما. أسماها "تودد" على اسم القصة الشهيرة في ألف ليلة وليلة."

"نعم، أتذكرها. الجارية التي كانت تعرف كل شيء والتي باعها سيدها الذي يحبها وتحبه هي أيضًا بولهٍ، لأنه لم يستطع إيواءها لأنه أفلس وعندما اختبرها الخليفة هارون الرشيد على ما أظن – أفحمت كل العلماء في الدين والأدب والموسيقى والعلوم، أليس كذلك؟ فأرجعها لحبيبها وسيدها."

اقتربت سارة منه وقرصته من خده وهي منشرحة منه.

"بالضبط. غير أن المسرحية لم تكتمل أبدًا. لكن الفكرة ظلت تعشش في بيتنا طوال الوقت. أرادا أن يربياني ويؤدباني كما تأدبت هذه الجارية ليس معنى كلمة جارية المتعارف عليها ولكن هذا الكائن الأنثوي الذي يشع كيانه جمالاً ومعرفة فتسمو مع حبيبها إلى أعلى عليين. أنا أيضًا رمتُ في بعض الأحيان أن أكونها. قرأت كثيرًا كما تعلم وكثيرًا ما تبادلنا، أمي أبي وأنا أبيات الشعر ونحن في البيت، أو يختبرني فجأة في إعراب كلمة أو صرفها."

صمتت سارة فجأة، ووضح لهاشم أنها متأثرة بما قصته، تنهدت ثم قالت:

"مات أبي عام **72** لكن موته الحقيقي كان في **67**، من بعدها تبدل حاله وتغير وكأن ما كان يقوله لي أوهام وأشباح، كنت أستعيده في لحظة ما ويرجع أبي الذي أعرفه بتوهجه الخاص... لكنه مات. مات ببساطة، أعرف أن الموت علينا حق، لكني لم أستطع أن أغفر له أبدًا أنه مات، شيء لم أستطع أن أجتازه."

فقال هاشم متأثرًا:

"كلنا سنموت يا سارة."

تنهدت وقالت:

"أعلم، لكني أقول لك أنت ما أحسه داخلي. كما لم أغفر أبدًا لأمي تدهورها بعد موته وإهمالها التام لجمالها. عودوني أن أكون "تودد" ثم خذلوني هما الاثنان، هو أهمل عقله وهي جسدها. لكني عزمت ألا أتغير، ولست أعرف هل سأفعل مثلها، سأسلم أن الأخرى لغواية الدمار التي تتملكنا كلنا."

"أي كلام هذا يا حبيبتي!"

بكت سارة فجأة وكأنها لم تعد تحتمل أي شيء. احتضنها هاشم وظل يهمس باسمها برقة في أذنها حتى هدأت، ورفعت رأسها وقالت وهي تمسح دموعها:

"ها هي الأدوار تنقلب، طالما اعتبرتك ابني."

فقال متضاحكًا لكي يتغلب على انفعاله:

"أنت بابا وأنت ماما وأنور وجدي ومحمود المليجي وزينات صدقي وهدى يونس.."

فانتفضت سارة:

"هدى! يا للهول، إنهم ينتظروننا. يجب أن نذهب سريعًا."

"اهدئي، المغرب متأخر ونحن سنسهر في المنتزه مثل كل مرة."

"هلم. لا تضع وقتًا."

نزلا وركبا السيارة لكنهما ظلا طوال الطريق إلى المنتزه صامتين، لم ينبسا بكلمة وكأن الذكريات أوقعتهما في قبضتها وبقيا، حتى بعد اندماجهما مع الشلة، ساهمين، كل في عالم بعيد غريب: كأن ذلك العالم المسترجَع يحل بالتدريج لحظة لحظة.

القاهرة سبتمبر 1887

ودعت سارة أخاها مراد ثم أسرعت إلى المشربية لكي تتابع خطاه بنظرها. طويل على خلاف معظم أسرتهما. جلبابه الأبيض يشع نورًا في كل سوق النحاسين. تحب أن تتأمله دائمًا وهو ذاهب إلى المعبد. وهو يضع شال الصلاة الأبيض المطرز أركانه الأربعة بنسيج أرجواني جميل، ووشاح الشعائر الدينية بخيوطه الزرقاء الزاهية. معروف هو في كل حارة اليهود والخرنفش والموسكي. يتباهى بدكانه الجديد في الصاغة وبمهارته الفائقة في المشغولات الذهبية. دعت سارة له وهي تراه يختفي من الحارة متجهًا إلى معبدهم "راب سمحام". غدًا سيخطب ليلى بنت الطبيب داوود درويش، فهو مازال على حبها رغم انتقال عائلتها للمعيشة في حي السكاكيني مع من هاجر من حارة اليهود إلى ذلك الحي. ودت لو ذهبت معه إلى الكنيس لكن حملها هذه المرة متعب للغاية. فهي مرهقة طوال الوقت حتى لقد أشفقت على زوجها يعقوب، فهي تكاد لا تقوم بأي من أعباء المنزل فيؤديها هو. كم تريد أن يكرمها الله بميلاد هذا الطفل الآتي في صحة جيدة. كم يؤلمها أن يموت كل من أولادها الثلاث بُعَيد الميلاد بقليل. يحبها يعقوب برقة وبمشاعر جياشة حتى يكاد ينسى أنها محرمة عليه أيام السبوت. ترى في عينيه حنينًا إليها لا ينضب. ما أكثر ما تستكين في حضنه على الكنبة الإستانبولي فيهدهدها بالتربيت على كتفها، ويقص عليها روايات لا تنتهي عن أصل عائلتهم، روايات تتناقلها الأجيال عن جاههم في الأندلس القديم وفي فاس المغرب ونزوحهم إلى القاهرة. يروي لها أن كل أهل الأندلس – يهود ومسلمين – رابضوا على الجانب الآخر من البحر ينتظرون اليوم الذي سيرجعون فيه لبلادهم حيث جنة الله. ولكن عندما توالت الأجيال ومر أكثر من قرنين انتقلوا إلى مصر ولكنهم للآن يقيمون جانب من الصلاة في معبدهم باللغة الإسبانية، فتسأله: ألهذا تصلي في كنيس "راب إسماعيل" ولا تصلي في "راب سمحام؟" فيجيبها: إن الله في كل مكان، لكنه يستشعر جدوده في هذا المعبد، ويكاد يرى أندلسهم الضائع. هي تؤمن بكل رؤياه وبكل العالم الغيبي الذي تمور به القاهرة الأسطورية. تضحك عندما تتذكر كم مرة طافت هي وصديقتها علية ابنة الحاج حسنين تاجر الأقمشة في الموسكي على الأولياء والأضرحة والقديسين من كل دين، والموالد التي لا تعد التي حضراها معًا. كان يعقوب يتغاضى دائمًا عن هذا الهوس لحبه الشديد لها. ولما قصت له عن تعرفها على علية ذات مرة وهي تبتاع الأقمشة من

الموسكي وكيف أنهما أصبحتا صديقتين بشكل لا يصدق، انشرح قلبه لأنه وجد من توافقها على ولعها هذا بكل القديسين. كاد أن يعصف بها الشكل عندما مات ابنها الأول لولا حب يعقوب وحنانه ومؤازرة علية وعطف مراد أخيها. وعندما صارت حبلى للمرة الثانية، نصحتها علية بزيارة معبد ابن ميمون لأنها سمعت عن غرفته المباركة ودهشت لعدم معرفتها بها رغم أنها يهودية. تعجبها علية بقوة شخصيتها التي ورثتها عن أبيها الحاج حسنين وتقدره جدًا لأنه صمم أن تتعلم ابنته القراءة والكتابة مثل أخيها الأزهري. استوعبت علية كل هذه المعرفة التي تنهلها من الكتب، ولكنها لم تؤثر على حبها للموروث الشعبي لدلائل خيرات الأولياء والقديسين. قالت سارة لنفسها "لقد كنت السبب في طلاقها." في ذلك اليوم البعيد، منذ خمس سنوات بالضبط، هاجت القاهرة وهي تسقط تحت جيوش الاحتلال الإنجليزي. لم يكنّ ليتأثرنّ لو كنّ في بيوتهن، ولكنه كان الموعد المحدد الذي قررا المبيت فيه في السرداب الذي رقد فيه جثمان موسى بن ميمون لمدة سبعة أيام بعد وفاته قبل أن يرسل جسده إلى طبرية حيث دفن هناك في فلسطين. قالت سارة لعلية تترجاها أن تبيت معها في تلك الغرفة التي نالت بركة رقاده منذ سبعمائة عام تقريبًا:

"من أجل ابني يا علية، أرجوك."

رافقتها علية دون أن تخبرها أن زوجها قد رمى عليها يمين الطلاق. مرت عليها علية ثم خرجتا وهما تحبكان ملائتيهما السوداوين حولهما. وصلا قبل غروب الشمس بوقت كافٍ، عبرا شوارع مرتبكة ومائجة بأناس مذعورة، تمتمت:

"كأنه يوم الحشر."

فقالت علية لها:

"خراب في الشارع والدار."

وصلتا إلى المعبد، ونزلتا إليه لأنه منخفض عن مستوى الأرض. واندهشتا عندما وجدتا أن هيكله مبني في ساحة المعبد دون أن يحميه قبة أو سقف.

مالت سارة على علية هامسة:

"يكفي أنه قد ولد هو الآخر في قرطبة وجاء إلى مصر."

فضحكت علية وهمست هي الأخرى:

"مثل يعقوب زوجك طبعًا. حكاياته التي لا تنتهي عن الأندلس، حتى أبي الشيخ حسنين يحكي لي عنها. لكن الآن ماذا سنفعل؟"

اتجها إلى السرداب ومنها للحجرة. خلعتا نعليهما ووضعتاهما بجانب المدخل وولجتا إلى الداخل. وجدتا الغرفة خالية لحسن حظهما، وبعض الوسائد موضوعة في كوات محفورة في الحائط.

سألت عليه:

"ثم ماذا؟"

"يجب أن نبيت هنا من غروب الشمس للفجر."

"إن شاء الله. عسى أن يرزقنا ببركات هذا المكان."

صمتتا متأملتين حالهما وكل واحدة تجلس في كوة ثم تمددت فيها. بدأ الظلام يزحف ببطء على الغرفة المعتمة أصلاً حتى أصبحت حالكة تمامًا.

أتى صوت علية وكأنه حلم بالنسبة لسارة التي بدأت تنعس من الخوف وألم الحمل.

"أين الناس؟ لماذا لا يوجد أحد هنا؟"

"يخافون. فكما ترين المعبد قديم جدًا."

"لا. أنا أقصد الليلة؟"

"للهوجة التي بالخارج، يبدو أن الأمر خطير بشكل لا نفهمه نحن."

صمتت علية مرة أخرى وهي تفكر في حالها، وفي يمين الطلاق الذي لاحقها منذ قليل. إنها لا تهاب شيئًا، فهي قوية مثل أبيها، وزوجُها لا يستطيع أن يستغني عنها. إنه يحبها وهي أيضًا تحبه، لكنها قرأت وعرفت كيف يجب أن يراعي ربه فيها، هكذا يقول الدين، كيف رفع النبي المرأة إلى مرتبة عالية كما كان يعامل زوجاته، قالت فجأة:

"سارة! أتعرفين السيدة خديجة؟"

"زوجة عم يحيى تاجر العطارة؟"

"لا. لا. زوجة نبينا محمد."

"نعم، لقد حكيت لي عنها من قبل. أعرف أنك تقدرينها جدًا."

"جدًا. لا تتصورين مقدار حبي لها. إنها المرأة بحق. الزوج والأم الرؤوم. لكم أحبها سيد الخلق!"

"نعم لقد قلت لي."

"أتعلمين لمَ أقدرها؟"

بدأت علية تتكلم عن مشاعرها ومعلوماتها عن السيدة خديجة إلا أن سارة كانت قد غفت ثم راحت في سُبات عميق، وأدركت علية هذا عندما علا صوت زفيرها المنتظم في ظلام الغرفة.

* * *

قامت سارة من المشربية وهي تتنهد وتفكر إن خمس سنوات قد مرت على هذه الليلة الغريبة وولد ابنها في صحة جيدة ولكن ما لبث أن اختطفه الموت أيضًا. ثم حمل أخر، كل مرة تسعة أشهر من عذاب الخوف والأمل. ثلاث مرات وثلاث ولادات وثلاثة أكفان صغيرة. أشفق يعقوب عليها وكرر أنه لا يريد أي أطفال وهو يذعن لإرادة الرب، لكنها تحبه وتريد ذرية من صلبه. لقد عرف أن مجموعة من اليهود المهاجرين الروس والرومانيين والبولنديين قد جددوا المعبد وافتتحوه في 26 يناير هذا العام واحتفلت يومها معهم. قررت أن تبيت ليلة أخرى في المعبد وذهبت لعلية ولكن علية قالت ضاحكة:

"لا يا حبيبتي. لا تسلم الجرة كل مرة. إذا طلبت من زوجي الشيخ صالح هذه المرة لن أسلم. لقد ردني منذ خمس سنوات بعد الليلة المباركة إياها. ولكني لن أضمن طلاقًا وردًا جديدًا."

ثم احتضنت سارة وأكملت:

"لا تبتأسي، سنجد حلاً."

أوصلتها للمعبد ورجعت سريعًا بعد أن وافق زوجها على التوصيل فقط. كانت الغرفة مزدحمة هذه المرة، جلست بجوار عجوز مريضة تكاد لا تقوى على التقاط أنفاسها. ورغم آلام الحمل ساعدتها سارة على الاعتدال وسندتها. سألتها العجوز عن سبب مجيئها، ففضفضت سارة لها عن أحزانها.

أنصتت العجوز جيدًا لها ثم قالت:

"هذا والله أمر عجيب. كنت أعرف يهودية أخرى منذ أربعين سنة تقريبًا اسمها سارة مثلك، كانت تعيش أيضًا في حارة اليهود ولها أربعة أولاد ماتوا صغارًا. أتعرفين صاحب جريدة "أبو نظارة زرقا"؟ يعقوب صَنْوَع المشخصاتي والصحافي؟"

غمغمت سارة:

"نعم. سمعت عنه من يعقوب زوجي."

"إنها أمه."

فقالت سارة بفرح:

"إذن لقد عاش لها ولد أخيرًا. ماذا فعلت بحق الرب؟"

فقالت العجوز:

"ولي الحلاوة؟!!"

"طبعًا يا خالة... لم أعرف اسمك؟"

"راشيل فرج"

"تشرفنا. ماذا فعلت سارة الأخرى أم يعقوب هذا؟"

"لقد استشارت إمام جامع سيدي الشعراني."

"في باب الشعرية؟"

"نعم."

"وماذا قال لها؟"

"لكل امرئ يا بنيتي كلمة مختلفة في الغيب، اذهبي واستشيريه ولنر"

وما أن بزغ الفجر حتى خرجت سارة مع جموع مصلين الفجر المسلمين إلى بيت علية حتى قبل أن ترجع لبيتها وقصت عليها ما قالته العجوز راشيل، فوعدتها علية أن تذهب معها لجامع سيدي الشعراني بعد صلاة الظهر. عادت إلى بيتها وقصت على يعقوب الذي كان ينتظرها وهو في حالة من القلق عليها.

عندما ذهبتا إلى إمام الجامع، جلستا أمامه متبرقعات بحجابهما. ألقتا السلام وأعادت عليه سارة قصتها، فقال:

"بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين. ما اسمك يا ابنتي وما اسم زوجك؟"

"اسمي سارة كوهين عبد الواحد، واسم زوجي يعقوب ليفي عقنون."

"يا بُنيتي. باسم الله الواحد الحنان المنان، ليكن ابنك لله، واسمِهِ على اسم أبي الأنبياء كلهم إبراهيم عليه السلام. ولتنذريه للإسلام حتى ولو ظل يهوديًا. والله هو الهادي المعين."

قامتا وقبلتا يده وذهبتا.

عزمت سارة على تنفيذ هذا النذر ووفت به. وسيولد إبراهيم الطفل قويًا صحيح البدن، طيب القلب. سينشأ إبراهيم شبه مسلم وسيلتحق بكتاب لتحفيظ القرآن وتعليم مبادئ الدين الإسلامي وقواعد اللغة العربية، كما سيلتحق بمدرسة "ابن ميمون" في درب البرابرة عندما ستُنْشأ عام **1892** وسيشب وهو يتقن عدة لغات غير العربية والعبرية مثل الإنجليزية والتركية والإسبانية والفرنسية. وستنقسم حياته بين بيت سارة أمه وبيت علية صديقتها بين أولادها الخمسة وسيعتبر كواحد منهم. وعندما سيصاب باليتم بموت والده في التاسعة من عمره وموت سارة وهو في سن الثامنة عشر، سيتزوج من "رفقة" وسيصبح أبًا بعد مدة ستطول، وسيتمنى دائمًا أن يدفن في

فلسطين، ربما تأثرًا بما حكت له أمه عن تلك الليلة التي باتت فيها مع علية في الحجرة المباركة لجثمان موسى بن ميمون.

الإسكندرية نوفمبر 1982

الجامعة في حريق. أخبار المذابح التي ترتكبها إسرائيل في صابرا وشتيلا بعد اجتياحها لبنان لا تصدق. يشعر الجميع بالعار والدماء حمم في العروق. المظاهرات محبوسة داخل أسوار الكلية، وتردد شعارات إسلامية. حاولت الجموع الانطلاق إلى الشوارع لكنهم صدوا بقوات الأمن التي تحاصر الكلية.

لمح هاشم أيمن من بعيد داخل المظاهرة. لقد مر عام على القطيعة بينهما. كأن الصداقة لم تكن، لم يره منذ شجارهما الفائت، وساعدت الظروف على هذا البعد. كان هاشم يقضي ستة الأشهر الثانية في سنة الامتياز في مستشفى الكلية، بينما يقضيها أيمن في مستشفيات وزارة الصحة فلم يلتقيا، حتى الأصدقاء المشتركين انشغل كل منهم بحاله فاكتمل الفراق تمامًا.

تساءل ما الذي أتى بأيمن داخل الحرم الجامعي في هذا الوقت، هل كان يعلم شيئًا عن المظاهرة، بالطبع، لحيته التي تركها تنبت مرة أخرى والطاقية البيضاء التي يضعها على رأسه تؤكد معرفته. لكنه لم يرتدي مثل كثيرين من الجماعة الجاكيت على الجلباب الأبيض القصير، فهو مازال محتفظًا بملابسه العادية. تأمل هاشم وجه صديقه برزت زبيبة الصلاة التي كانت قد خفت في السنين التي كانا فيها أصدقاء رغم أنه لم ينقطع فيها أبدًا عن الصلاة، اخشوشنت واغمقت واكتسب وجهه الأسمر عبوسًا وتجهمًا.

علت الهتافات مرة أخرى "خيبر خيبر يا يهود، جيش محمد سوف يعود"، ورفع بعض منهم المصاحف فالتهبت الحناجر والأرواح وجاشت فانفلتت المظاهرة خارج الكلية فاشتبكوا بعنف مع القوات المحاصرة وحاول البعض الانقضاض على سيارة عابرة فتحطم زجاجها وهشم البعض زجاج سيارات أخرى متوقفة، كما حاول آخرون إشعال النار غير الجنود تصدوا للمظاهرة وظهرت الهراوات العمياء فتفرق الشمل سريعًا في الشوارع الجانبية ورجع بعضهم للكلية.

اختفى أيمن وتاه من نظر هاشم الذي ظل داخل الكلية. فكر هاشم في حفل الليلة الذي سيقام وسط هذه الظروف السيئة. كان الحفل متفقا عليه منذ فترة وبعد عناء كبير في إقناع المسؤولين في الكلية والتحايل عليهم، فبعد أن كان حفلاً لجمع التبرعات للفلسطينيين ورفض الاجتياح الإسرائيلي للبنان، خاف مسؤولو الكلية أن تتحول لأعمال عنف، فأعلن أنها حفل خيري

لجمع التبرعات فقط، وأيضًا توجسًا لتدخل الجماعات الإسلامية لتعنتهم بالنسبة للغناء والموسيقى التي يحرمونها. تذكر هاشم كيف كانت ساحة الكلية تمتلئ بالمانشتات الكبيرة التي كانت تحرم كل شيء تقريبًا. ومجلة الحائط التي كانت ترد على مقالات مصطفى محمود التي كتب فيها "كيف تحرم الموسيقى وفيها بيتهوفن؟" كانت المقالات ساذجة والردود التي كتبتها الجماعات أسذج وأغبى. كما تذكر الصورة الكبيرة التي وضعوها لجيهان السادات ببدلة رقص شرقي وصورة لها وكارتر يقبلها على خدها والتعليقات الفجة ذات الصبغة المستهلكة. يومئذ قالت له سارة: نحن في عصر التفاهة. نحن في ثقافة العامة منذ أن أصبحت أمريكا سيدة العالم في نهاية الأربعينات. العامة لهم الحق الآن في اعتلاء كل قمة. ومهما علا شأن أي منهم فهو يحمل داخله فكر الغوغاء وآراءهم وسينزوي الإنسان الحقيقي الأصيل. "ثم أكملت له عندما رأت اكتئابه" لكنها لابد أن تُسترجع. كما قال الرسول: استبشروا تبشروا. الأصيل هو الباقي دائمًا.

ماذا ستفعل سارة الليلة؟ قرر أن يمر على القسم الذي تعمل نائبة به. يعرف إنها ستعرض اليوم ما أنجزته في رسالة الماجستير التي تقوم بها على المشرف، وسترجع كالعادة محبطة إلى البيت وهي تقول "يظنون أننا قابلون للتقدم بهذه الطريقة. نحن شعوب فقدت معنى كلمة التفكير العلمي. مجهود هائل ثم لا شيء... على أوهام علم."

صعد السلالم إلى القسم وسأل عنها ثم دخل غرفة النواب. كانت ترتب أوراقًا أمامها. تأملها لبرهة قبل أن ترفع رأسها وتنظر إليه. لكم يحب هذه الرائعة التي تقف أمامه الآن بكل جدية. تلم شعرها بمشك بسيط وترتدي معطفًا أبيض يؤكد الجزء الخاص فيها كطبيبة تؤمن بواقع معاش كما تؤمن برحابة عالم "تودد" الأسطوري الذي نبتت فيه.

لم تستطع سارة سوى أن تبش أمام وجهه المبتسم الشارد وطلعته الجميلة الخجول كأنه يقف أمام أستاذه وليس حبيبته وزوجته، ثم بادرته قائلة:

"أسمعت الأخبار؟"

فعبس وقال:

"كلها قطران."

"العالم قد جن بشكل لا يصدق. قوات إسرائيلية وحزب الكتائب اللبناني أبادوا الفلسطينيين في المخيمين."

"نعم. لقد عرفت. حوالي ثلاثة آلاف إنسان قد قتل."

لاحظ أن الورق يرتعش في يدها. فاقترب منها وقال بصوت يملأه الألم والعجز:

"لا تحزني يا سارة."

"كيف لا وأنا أرى أناس تباد دون أن يتحرك أحد في العالم كله. ألا تحزن أنت؟"

فتنهد قائلاً:

"بالله عليك. أكاد أموت غيظًا وكمدًا أنا الآخر، والمظاهرات لا معنى لها، ولا تؤتي بأي ثمار، والشعارات الإسلامية تجعل الصراع وكأنه بين دينين وليس بين مغتصب ظالم وشعوب مغلوبة على أمرها."

"لا تنس أنهم يقومون من الأصل على أساس ديني، وهم يريدون أن تكون حروبهم معنًا على هذا الشكل لأن هذا أضمن لهم، لأنهم يعرفون اللعب جيدًا بهذه الورقة، ونحن للأسف ننزلق لمخططهم هذا."

"ألن يتحرك العالم، وريجان هذا المهرج كيف سمح لإسرائيل باقتحام لبنان وضربها؟ ألا يكفيهم ما فعلوا في فلسطين؟"

سخرت سارة وقالت:

"لا معنى لهذا الآن."

جلس على المقعد أمام مكتبها يقول يائسًا:

"ماذا سنفعل؟"

ثم أضاف:

"هل تظنين أن الحفل سيلغى؟ الأحداث كلها لا تطمئن."

"لن تلغى. إن الحفلة أساسًا لرفض العدوان."

"قد تجد الكلية في الأحداث فرصة، حتى لا تتعرض لضغط الجماعة كما حدث في المرة السابقة."

"التذاكر مباعة منذ أسبوعين، إذا ذهبنا لن يمنعنا أحد."

"هل انتهى عملك اليوم؟ هل نرجع معًا الآن؟"

"نعم. هلم بنا."

تمشيا إلى بيت سارة في الحي اللاتيني قريبًا من الكلية. أعدت سارة طبق سلطة وقطع من اللحم البارد ووضعته أمامهما في غرفة المعيشة وقالت:

"أتظن أن علينا أن نغير الفقرة الخاصة بنا؟"

"لم؟"

"لا تنس أننا أول فقرة! والأحداث عنيفة بشكل لا يعقل. هل نزيد شيئًا عن لبنان؟"

"لا. يكفي ما قد تمرنا عليه. ولنجرب للمرة الأخيرة."

أمسك هاشم بالجيتار واعتدلت سارة في جلستها وبدأت تغني:

"أحنُ إلى خبز أمي وقهوة أمي ولمسة أمي

وتكبر فيّ الطفولة يومًا على صدر أمي.

وأعشق عمري

لأني إذا ما مُت أخجل من دمع أمي... من دمع أمي."

أكملت سارة أغنية مارسيل خليفة وهي تنظر إلى هاشم تنتظر رأيه فقال لها:

"أنت تعرفين رأيي. صوتك رائع وإحساسك كالعادة مرهف وعالٍ."

"أتمنى أن يكون هكذا في الحفل."

"هل تودين أن نراجع "سنرجع يومًا" أيضًا الآن؟"

"لا. أنا أحفظها عن ظهر قلب."

يعرف هاشم كم تعشق سارة فيروز. فيداعبها:

"أهذا للعرق الشامي؟"

"فيروز أكبر من أي وطن محدود. أي فن كهذا هو الوطن الحقيقي."

ثم قالت كأنها تدرك حلاً للغز ما:

"ثم إنني مصرية. أنسيت هذا؟"

"أموت أنا في الفراعنة."

"لا تهزل."

فقال هاشم بقلب مصدوع وبلوعة استشعرتها

"أنا لا أهزل. أنا أحبك جدًا يا سارة حتى أني أكاد أموت لثقل هذا الشعور. وأنت تعلمين هذا."

لم يتغير على الإطلاق... نفس النظرة الطفولية والروح الهفهافة. اقتربت منه وجلست بجواره وأمسكت بيده وهي تستشعر نفس اللوعة التي نقلها لها:

"أنا أيضًا أحبك يا هاشم."

ثم وجدت نفسها تكمل:

"عدني أن تهتم بنفسك دائمًا."

فنظر إليها مستغربًا هذه الجملة ولم ينطق، فألحت:

"عدني."

قام ثم سألها:

"أنراجع قصيدة أمل دنقل؟"

"هذه أيضًا، أنا أحفظها مثل جل قصائد أمل. تعرف، أنا أحب هذه القصيدة وتعجبني رغم إنني لست مع وجهة نظر أمل السياسية فيها، فرغم كل هذا العنف الذي نواجهه، فالصلح هو الحل الأمثل لنا."

"رغم انتهاكات إسرائيل الفظيعة! بالله عليك!"

"يجب ألا نعطي فرصة لهؤلاء المتعصبين أن يقتلونا. الله يرحمك يا سادات، كان رجلاً ذكيًا بحق."

"لولا سلامنا مع إسرائيل ما دخلت هي لبنان. لقد حيدوا مصر تمامًا."

"لولا سلامنا مع إسرائيل، كانوا سيدخلون لبنان وسيناء محتلة أيضًا، عندما تلعب مع إنسان مجنون عليك أن تحذره دائمًا، وتكون على استعداد للخدعة وليس للصراع."

"ربما. أنا كنت مع السلام لكن هذه البشاعات تربكني."

"ربما تتفق معي في يوم من الأيام. أنا أحترم رأيك للغاية."

فقال هاشم:

"لكن ألا يجب أن نرتاح قليلاً الآن؟ أمامنا ثلاث ساعات حتى يبدأ الحفل."

* * *

كان مدرج التشريح الكبير مزدحمًا على أخره كما لم يتوقعا. تقابلا مع باقي الزملاء الذين سيقدمون الفقرات المختلفة، ورغم الزحام وتوقع لم تبرعات غير التذاكر التي بيعت إلا أن الجو كان مشحونًا بالأخبار التي تتناقل من شخص لآخر. أعلنت الأسرة المنظمة عن بداية الحفل وألقيت كلمة عن ما يحدث في لبنان ثم قُدمت أولى الفقرات.

– غناء وإلقاء شعر من د. سارة محمود حفني بمصاحبة عزف جيتار من د. هاشم الصادق.

صدح صوت سارة التي يعرفها كثير من الحاضرين لاشتراكها عام بعد عام في حفلات الكلية. كانت تقف شامخة حزينة وهي تردد "سنرجع يومًا إلى حينا"، ثم بدأت في أغنية مارسيل وجعلت بعض الشباب يبكي وهو يستمع لـ "لأني أخجل من دمع أمي..."، حتى ضجت القاعة بالتصفيق طالبين إعادة إلا أن سارة أشارت لهم بهدوء وقالت:

"الآن سنقرأ قصيدة لأمل دنقل والشعر يحب الإنصات."

صمتت القاعة فجأة واستعدت سارة غير أن حركة ما على جانبي الممرات جعلتهما سارة وهاشم يدققان النظر جيدًا.

كانت اللحى تتحرك وتملأ الممرين الجانبيين وتقترب من منصة المدرج. توقف هاشم عن العزف الهادئ الذي كان سيصاحب القصيدة إذ لمح بعض الجنازير بأيديهم. صاح واحد منهم:

"كفى كيف تجرؤون على الغناء؟"

اقتربوا أكثر والتصقوا بمشاهدي أول صف بتحرش. صعد أيمن ووقف بجوار هاشم ثم صرخ فجأة:

"زناة."

فأمسك هاشم بيده بعنف وقال:

"أصمت. أجننت؟"

"أنت فاسق وهي فاسقة."

"اخرس. إنها زوجتي."

"ملعون أنت وهي."

وقبل أن ينطق هاشم انطلق صوت سارة قويًا رائعًا متحديًا:

"قصيدة أمل دنقل"

كانت لنبرة صوتها سطوة جمدت الجمهور البادئ في الاشتعال.

"كلمات سبارتاكوس الأخيرة."

كاد قلب هاشم أن ينخلع، وقفز في لحظة إلى جوارها قائلاً:

"أرجوك لا. ليس الآن."

بدأت بعض اللحى في اعتلاء المنصة وظل أيمن في مكانه يراقب ما يجري وكأنه انفصل عن كل ما حوله. أمسك هاشم بيد سارة الباردة فإذا بها تقول فجأة:

"المجد للشيطان معبود الرياح

من قال لا في وجه من قالوا نعم..."

هاج المدرج كله وقبل أن يفيق هاشم كانوا التفوا حولهما، واشتبك بعض الناس مع بعض ودخل باقي أفراد الحفل وصعد بعض الطلبة إلى المنصة في محاولة لإنقاذ سارة وهاشم. طار أحد

الجنازير عاليًا فلمحه هاشم فرفع يده اليمنى ليحمي سارة فأصابه فتعالت آهته، هب أيمن واقترب صارخًا:

"اقتلوا اليهودية!"

نظرت سارة إلى هاشم في ذهول قبل أن يطيح بجسدها جنزير آخر هوى على صدغها فسقطا معًا وهي ممسكة بيده. احتضنها هاشم بشدة وحاول أن يجرها خارج هذا السعير الذي انفجر.

الإسكندرية أكتوبر 1981

"إذا كان الله قد كتب لي قدري أن أتولى المسؤولية عن شعب مصر وأنا أشارك في مسؤولية المصير بالنسبة للشعب العربي وشعب فلسطين، فإن أول واجبات هذه المسؤولية أن أستنفد كل السبل لكي أجنب شعبي المصري العربي، وكل الشعب العربي، ويلات حرب أخرى محطمة، مدمرة، لا يعلم مداها إلا الله."

جاء صوت السادات كأنه من عالم أخر. كانت الإذاعة تعيد الخطاب الذي ألقاه في الكنيست. كان هاشم وعمرو وإسماعيل عند أيمن في بيته. إنها إجازة ما قبل امتحان البكالوريوس والأحداث مربكة للجميع. مقتل السادات وأحداث أسيوط واستعداداهم للامتحان. أيمن يعلن فرحته صراحة لقتل السادات وشماتته في موته العنيف.

أدخل أيمن الصينية وعليها أكواب الشاي وهو يقول سعيدًا:

"النصر لنا."

فبادره عمرو:

"أي نصر تقصد؟ قتل السادات؟! كنت أظن أن النصر أننا سنتسلم الأرض، سيناء كلها، بدون إراقة أي دم."

"والثمن المدفوع؟ أي ذل! كما أنه خائن، وحتى إن لم يكن فالحكم لله وحده، والنصر قادم بمشيئته إن شاء الله. وسنحكم بالإسلام."

فتدخل هاشم قائلاً:

"أي إسلام تقصد؟ الإسلام الذي تحصرونه في بقعة ضيقة تغصبون الناس عليها."

"حذار! إنها حكم الله."

"الله لم يجبر الناس على ما تريدون أنتم فعله. إنهم يرهبون الناس ويقتلونهم تحت شعار الله."

"ألا تعلم أن علينا أن نطبق الشريعة حتى ولو قضى كل الناس."

"من الأهم؟ الناس أم الشريعة التي وضعها أناس مثلنا؟ إنها ليست الدين إنها تفسير الدين من أناس أخرين، ألا تعقل؟ ألا يمتلئ القرآن بآيات "ألا تعقلون؟" "ألا تفقهون؟" "ألا تتفكرون؟"

"تطبق الشريعة ولو لم يبق أي إنسان."

"تطبق على من إذا لم يبق أحد. يا أخي! إذا كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك..."

فقال إسماعيل مهدئًا:

"بالله عليكم أمامنا امتحان البكالوريوس في أقل من شهر وأنتم تتناحرون في السياسة. لن تستفيدوا شيئًا من هذا كله."

فقال أيمن:

"إنها إعلاء لكلمة الله."

بينما رد هاشم:

"إنه نقاش عن الحق، وحرية الناس وتقرير مصائرهم. إننا خارج التاريخ منذ أكثر من ألف عام."

فقال أيمن:

"لابتعادنا عن الله وشريعته".

فعارضه هاشم:

"لا. لابتعادنا عن العقل الذي أوصى به الله. الناس لا تبتعد عن الله، إنها تبتعد عن حكمته فقط."

فقال إسماعيل:

"إذا استمريتما على هذا المنوال سأرحل. أريد أن أراجع اليوم ما اتفقنا عليه، ما رأيك يا عمرو؟"

فقال عمرو وهو يبدأ في تنظيم الأوراق على المائدة بجوار المراجع:

"فلنلتزم هذه الأيام حتى تمر على خير."

اتخذ كل واحد منهم مكانه أمام أوراقه وبدءوا القراءة والمناقشة في نقط الخلاف أو مواضع الغموض عند كل منهم. استمروا بعض الوقت هكذا حتى قال أيمن لهاشم:

"منذ زمن بعيد لم تذاكر معنا يا هاشم إلا فيما ندر."

فقال هاشم وهو كاره لتلميح أيمن:

"لقد أصبحت أحب المذاكرة وحدي."

"لكني كثيرًا كنت أتصل بك فيقول لي فؤاد إنك تذاكر عند صديق لا يعرفه."

فقال هاشم:

"فؤاد لا يعرف أشياء كثيرة عني."

"ليس وحده."

فقاطعهما عمرو:

"وما في ذلك يا أيمن؟ فليذاكر كل منا بطريقته. يكفي هذا."

أكملوا الأسئلة المتبادلة غير أن هاشم لاحظ أن أيمن يحاول أن يتحرش به مرة أخرى مما أدهشه، لأنه يعرف أن أيمن طيب بطبعه ورغم اختلافاتهما الكثيرة إلا أنه صاحب عزيز عليه، ربما ليس بمنزلته القديمة كصديق أقرب لكنه يعرف أن رابطة الشلة هي التي تجمعهما معًا الآن.

قال إسماعيل:

"عندي صداع بشع. هل نشرب دورًا آخرًا من الشاي يا أيمن."

استأذن أيمن لعمل الشاي مرة أخرى، وفتح عمرو المذياع ليبحث عن محطة أخرى يكون بها موسيقى هادئة تساعدهم على المذاكرة وتهدئ من أعصابهم. انتهز هاشم فرصة غياب أيمن وقال لعمرو:

"إن ما حدث في أسيوط مرعب للغاية. إن الهجوم الذي تم على مديرية الأمن العام هناك وقتل حوالي مائة ضابط وجندي أمن بما فيهم مدير أمن المحافظة ونائبه واحتلال المبنى يدمر الأمل في انتقال السلطة بلا مشاكل في مصر. إن هذا ما تريده إسرائيل تمامًا."

فقال إسماعيل:

"هل تظن أن المجموعات الإسلامية هي التي ستحكم الحقبة التالية؟"

فقال عمرو:

"حتى لو حكمت فلن تستمر طويلاً."

فقال إسماعيل:

"من كان يظن أن الإسلاميين الذين أخرجهم السادات من السجون وشجعهم، هم الذي سيقتلونه؟"

فقال هاشم:

"هيتشكوك."

تساءل إسماعيل ضاحكًا:

"هيتشكوك؟"

"نعم من كان يظن أن طيورًا صغيرة جميلة اسمها (طيور الحب) قادرة على القتل."

دخل أيمن ووضع صينية الشاي على المائدة وهو يقول معلقًا على الجملة الأخيرة.

"هل كنت تظن الجماعات غير قادرة على القتل في سبيل الله؟"

فقال هاشم:

"أنا لن أتناقش معك الآن."

فقال أيمن:

"إنه كان يستحق القتل."

ثم أكمل وهو يسمك بأحد أكواب الشاي ويضعه أمام هاشم وهو ينظر في عينيه.

"هذا جزاء من يضع يده في يد اليهود."

ارتعشت يد هاشم وهي تهم بالإمساك بالكوب، لا مجال للشك الآن، إن أيمن يريد أن يثيره بأي طريقة، فتلك النظرة واضحة الدلالة. ندم هاشم أشد الندم... إنه في تلك الليلة في كابينة المنتزه عندما علم أن أم سارة يهودية وأنها تحمل سلسلة بها نجمة داوود حتى ولو اقتنع أنها مجرد تذكار غال عليها، وظل يردد لنفسه أنها لو كانت تحمل صليبًا أو ينج يانج أو عنخ أو أي علامة أخرى فسيكون سيان عنده، وهذه النجمة مجرد نجمة، وأن داوود نبي يؤمن هو به، وأن الله قد قال عنه في القرآن إنه "أواب" وأن سارة مختلفة عن الآخرين، ولذلك ظل شاردًا بعد انتهاء الليلة وعندما كان يتمشى راجعًا مع أيمن، ألح عليه ليعرف سبب شروده وارتباكه البادي للكل منذ أن أحضر سارة بالسيارة إلى المنتزه. تردد هاشم قليلاً فهو معتاد على إخبار أيمن بكل أحاسيسه منذ أن تصادقا وكثيرًا ما حكى له عن تعلقه بسارة غير المفهوم، فقال له باقتضاب:

"إن أم سارة يهودية."

فسأله أيمن مذهولاً:

"كيف عرفت؟ وهل سارة يهودية هي الأخرى؟ أنا أعرف أن ابن اليهودية يهودي، فالنسب عندهم للأم وليس للأب."

فقال هاشم مستنكرًا:

"بالله عليك!"

ثم أضاف وهو ينظر لأيمن:

"أيمن. أستحلفك بالله ألا تقول هذا لأحد مهما كان. أنا لا أعرف لماذا قلت لك، هي لم تقل صراحة لي لا تقل لأحد، ولكن كان عليّ أن أفطن لذلك، فهي تحترم خصوصياتها جدًا. أقسم بالله يا أيمن..."

فأقسم أيمن صادقًا في هذه الليلة. ولكنه الآن يلمح بمعرفته هذه. ماذا يقصد بهذا كله؟

وضع هاشم كوب الشاي مرة أخرى ولم أوراقه وقال:

"أنا ذاهب."

فقال عمرو وإسماعيل بدهشة:

"لماذا؟ لم ننته من المراجعة بعد."

فقال أيمن بتحد:

"إنه يدافع عن خائن."

فأعاد هاشم كلمته بهدوء خارجي وهو يغلي بداخله: "أنا ذاهب."

"إنك لا تستطيع أن تدافع عن خائن، ولذلك أنت تهرب، أو إنك مع الخائنين."

فقال هاشم:

"أنا لا أسمح لك يا أيمن."

واستمر أيمن وكأنه لا يستطيع أن يسيطر على انفعاله:

"إنه باع دنياه وآخرته وخسرهما."

فقال هاشم:

"أنت لا تفقه شيئًا."

فقال أيمن:

"إذن أفهمني من الدروس التي تتلقاها أنت من أصحابك الآخرين."

فتدخل إسماعيل:

"ماذا بك يا أيمن؟ إن أعصابك مشدودة نتيجة لاقتراب الامتحان."

فأجابه أيمن عابسًا:

"لا أنا فقط لا أحب الذين يدافعون عن الخونة."

فقال عمرو:

"يا أيمن الاختلاف لا يفسد للود قضية."

قال هاشم:

"يا أيمن، أنا قلت أنني سأذهب لأريحك من كل هذا."

فرد أيمن:

"لا. لن تذهب أنت بنفسك، بل أنا الذي أطردك من بيتي."

فصاح إسماعيل:

"أيمن! أجننت؟"

وقال عمرو:

"إن تطرد هاشم سنذهب معه."

فقال أيمن:

"لا تدخلا نفسيكما مع إنسان يدافع عن خونة."

وقال هاشم وهو ينسحب ويوجه كلامه لعمرو وإسماعيل:

"ابقيا من فضلكما. فأنا أريد أن أذهب وحدي. أشكركما. سلام."

حاول عمرو وإسماعيل أن يمسكا به، غير أنه انسل وهو يعيد مرة أخرى:

"سلام."

وعندما أغلق الباب خلفه، صاح أيمن بين دهشة عمرو وإسماعيل وغضبهما المستاء:

"في ستين داهية."

أسوان فبراير 1980

هبطت الرحلة من قطار الصعيد الدرجة الثالثة إلى محطة أسوان بآلام في كل جزء من أجسادهم. أكثر من 24 ساعة لكنها مرت كالحلم، احتلت الرحلة عربة كاملة، تبادلوا الغناء والرقص والنوم واللعب حتى وصلوا منهكين رغم استمتاعهم. تأكد مشرف الرحلة من وجود الجميع على رصيف القطار. اقترب أحد الشباب وسأل عمرو عن أية كلية هذه فرد عليه بأنها طب الإسكندرية، أعاد الشاب النظر إلى البنات وشعور معظمهن منطلقة فعلق قائلاً محييًا."

"الإسكندرية، أجدع ناس."

شكره عمرو وانضم للآخرين. كان معظم الشباب يحملون حقائبهم وحقائب البنات أيضًا. وزعهم مشرف الرحلة على الحجرات في الفندق البسيط البدائي. تناوبوا أخذ الحمامات سريعًا ثم انضموا جميعًا مبتهجين لبدء برنامج الرحلة.

مر النهار سريعًا بين جزيرة النباتات، ورحلة الفلايك في النيل الرائع وقبر أغاخان والفرجة على فندق أوبروي المبني على جزيرة في منتصف مجرى النهر بين الصخور الملساء العملاقة، والغذاء في نادي المحافظة بأسوان ثم التسكع عصرًا في أزقة السوق الجميلة الممتلئة بالعطارة والملابس النوبية التقليدية.

كانت الرحلة ثنائيات ممن جمع الحب، وآخرين تُنسج لهم قصص بداياته. ورغم عدد الرحلة الكبير إلا أن الشلة الكبيرة التي تتكون من شلتي صفية وهدى يونس كانت هي مركز اهتمام كل الرحلة لوضوح الصداقة بين أفرادها. كان معظمهم يعلم بالصداقة الحميمة بين سارة وهاشم لكن أحدًا لم يعرف تفاصيل الحب الذي يجمع بينهما، سوى هدى وأيمن، ربما لفارق السن أو لحرصهما على حميمية العلاقة واعتداد كل منهما بذاته وبخصوصيتها، بالذات أمام باقي أفراد الرحلة الذين لا اختلاط لهما بهم.

تأبطت صفية ذراع سارة وهما تتسكعان لمشاهدة البضائع المتناثرة في السوق، ووراءهما بخطوات كثيرة كان أيمن بجوار هاشم يتسكعان هما الآخران.

وعندما بدأت سارة في الاختفاء تدريجيًا في زحمة السوق طلب هاشم من أيمن أن يسرعا الخطى حتى يلحقا بهما، رفض أيمن:

"لا! دعهما لشأنهما، بعيدًا عنا."

فالتفت هاشم له وسأله:

"لماذا؟"

"ألا ترى أن عيون كل الرحلة عليها، وكلهم يراقبونك. أبق لنفسك بعض الكرامة."

"عم تتكلم؟!"

"عنك أنت وسارة."

"لا يهمني الناس. هيا نسرع. قبل أن تضيع من نظري."

"قلتُ لك لن أذهب معك."

"أنا أريدك معي كي لا يلاحظ أحد كما تقول."

"لن أذهب. قلت لك لن أذهب."

فتباطأ هاشم وهو يقول بألم:

"ماذا بك؟"

* * *

اختفت شمس فبراير سريعًا وبدأت لمسة باردة تؤكد وجودها. رجعوا إلى الفندق لوضع الأغراض التي اشتروها. استراحوا قليلاً حتى اقترح إسماعيل ووداد على الشلة الكبيرة كلها الذهاب لقهوة أم كلثوم الشهيرة لشرب الشاي، وافق الجميع وكان جلهم لم يسبق له الجلوس على مقاهٍ بلدية من قبل.

صدح صوت عذب لمغني جديد اسمه محمد منير من مسجل القهوة واتسعت الدائرة تشمل أفراد الشلتين. جلس هاشم بين عمرو وإسماعيل بعيدًا عن أيمن الذي جلس على يسارهم وبعيدًا أيضًا عن سارة التي جلست بين هالة وهدى على أقصى يمينهم. تناثرت الأحاديث الجانبية ثنائية وثلاثية، أو انتباه مفاجئ لنكتة خطرت لأي منهم أن يسردها، أو تعليق يجذب دائرة الكراسي الواسعة بالقهوة.

أحضر القهوجي الطلبات وهو يكرر ترحيبه بأهل الإسكندرية الجميلة كما أسماها. تناول هاشم الزنجبيل بعد أن نصحه عمرو أن يجربه.

"إنه كما الشطة الساخنة المسكرة. إنها رائعة، مزيج لا يتكرر."

فلما ذاقه هاشم أعجبه فعلاً، فابتسم لعمرو ولكن عينه لم تترك سارة للحظة، ولاحظ أنها ترتشف الشاي بلا مزاج وتتلفت حولها كأنها تبحث عن شيء. وضع هاشم كوب الزنجبيل واتجه إليها وسألها مستفسرًا فابتسمت قائلة:

"إن الشاي ناقص سكر."

"من فضلك."

تناول منها الكوب وسألها:

"كم ملعقة تريدين؟"

"واحدة تكفي."

دخل إلى القهوة وطلب السكر وقلبه جيدًا ثم عاد وأعطاها إياه، شكرته ورجع إلى مكانه فقال له إسماعيل:

"اشرب الزنجبيل قبل أن يبرد فيفقد طعمه المميز."

لمح سارة تبتسم من بعيد، ثم جذبها حوار جانبي مع كريم، لم يسمعه هو. راقبها وهي تندمج ببطء في الحديث. صمت صوت محمد منير بين وجهي الشريط، فأتى صوت مسموعًا للكل.

"..... الخميني. لا أظن."

التقط أيمن الحديث ووجه حديثه لسارة:

"وما له الخميني؟"

فأوضحت سارة:

"نحن نتكلم عن الحكم باسم الله، والفرق بين الشيعة والسنة في مفهوم الإمامة."

فقال أيمن:

"صحيح أنهم يقولون أن النبوة قد أخطأت سيدنا علي ونزلت على سيدنا محمد، ولكن هي ثورة إسلامية وعلينا أن نؤيدها لذلك."

فقالت سارة:

"من قال إن الشيعة يقولون بخطأ الوحي. هذا كلام نحن نقرأه في الكتب الصفراء للسنة. بعض منهم قد يؤمن بالحلولية ولكنهم نسبة ضئيلة. أتعرفون ما المشكلة الحقيقية في العالم الإسلامي اليوم؟"

فرد أيمن:

"المشكلة أننا لا نتبع أصول الدين القويم مثل السلف الصالح."

فقالت سارة:

"يا سيدي. ليس كل السلف صالحًا. فقط اقرأ التاريخ وأنت تعرف. فالمبشرون بالجنة حاربوا المبشرين بالجنة. والفتنة الكبرى أكبر دليل على هذا. علينا فقط أن نقرأ أكثر ونتقبل أكثر ونتفهم أكثر."

"أنت ترفضين حكم الدين إذن. إن الإسلام يصحو الآن وأنت تريدين أن يهدم."

"يا أيمن. من قال لك أن ملات الله هؤلاء هم فقط من يمثلون الإسلام ويتكلمون بلسانه؟"

"فهل تمثيلينه أنت؟"

"أمام نفسي نعم. وليس لي الحكم على الآخرين كما يفعلون. هل تعلم عدد الذين أعدموا بعد الثورة؟"

"هل تدافعين عن الشاه عميل الأمريكان؟"

"حكم الشاه سيئ للغاية لأنه لم يحترم حرية الآخرين، لكنه حكم بشر من الممكن أن أناقشه ولكن هؤلاء يقولون أنهم يحكمون باسم الله، أي حوار مع الجماعات التي تقول بالحكم نيابة عن الله؟ مادامت مرجعيتهم إله فإنك لا تستطيع أن تتناقش معهم حول ما يظنون أنها أوامره. تستطيع أن تقول للشاه – حتى ولو قطع رقبتك – أنك مخطئ في هذا الحكم، ولكن كيف تفهم من يحكمون باسم الله، أيًا كان دينهم، تقول الله قد أخطأ؟!"

"أوتجرئين؟"

"أنا لا أتكلم عن الله الآن، بل عن الذين يريدون أن يحكموا باسمه. ثم نحن يجب أن نستفيد بتجارب الآخرين. انظر إلى أوروبا وقتما كانت تحكم باسم الله ووقت ما أصبح الدين لله والوطن للجميع."

"علمانية يعني..."

"ما في ذلك؟. إن لب العلمانية هو لب الإسلام."

"هذا ما تقولينه أنت."

"هذا من وجهة نظري، قد أكون مخطئة، يجب أن نحاول القراءة أكثر في كل اتجاه، نحن لا نعرف أشياء كثيرة عن الدين."

"قولي هذا لنفسك."

فالتفتت سارة ووجهت كلامها لباقي الموجودين:

"من منا لا يحفظ المعوذتين. هل تتصورون أنهما لم يشملهما مصحف ابن مسعود لأنه ظن أنهما ليستا من كلام الله وأنهما ليستا إلا مجرد دعاءين، فعدد السور في مصحف هذا الصحابي 112 سورة فقط."

"ماذا هل هناك قرآن آخر؟ أجننتِ؟ ما هذا الكلام السمج؟"

"اسمع. هل يعرف أي منكم معنى المعوذتين؟"

فتعالت كلمة "طبعًا" من معظم الموجودين.

"إذن ما معنى" غاسق إذا وقب"؟"

لم ينطق أي منهم. كان هاشم يعرف معناها لأن سارة كثيرًا ما تتكلم معه عن الدين واكتشفت أنه لا يعرف معناها من قبل، ولكنه لم يشأ أن يتكلم. قال أيمن:

"أنت تتباهين بمعرفتك وتترفعين علينا."

صمتت سارة للحظة ثم قالت:

"أي" إذا اشتد ظلام الليل. نعوذ بك من الليل إذا طال واشتد ظلامه."

فقالت هدى:

"سبحان الله. كلنا كنا نظن أننا نعرف معناها. مؤكد درسناها صغارًا."

فأكملت سارة:

"هذا ما أقوله يا هدى. علينا أن نحاول فهم الدين أولاً ونقرأ كثيرًا ولا نحكم لندين. فأجمل ما في الدين "هلا شققت عن قلبه؟" كما قال الرسول الكريم."

قال إسماعيل ليخفف من توتر النقاش:

"أنا أحب هذه لأغنية لمنير. هل تغني معه يا سارة. كلنا نغني معه."

وافق الكل وكأنهم يتخلصون من حمل ثقيل. وتعالت الأصوات النشاز:

"يا عروسة النيل يا حتة م السما ياللي صورتك جوه قلبي ملحمة."

صهرهم صوت منير وكلمات عبد الرحيم منصور في حب حقيقي وإن اختلفت أشكاله لديهم وهم لا يدركون. ظلوا يغنون حتى انتهت الأغنية وصفقوا جميعًا وتعالت الضحكات مرة أخرى إلى أن حل التعب تمامًا وتساندوا متهالكين حتى وصلوا إلى فندقهم القريب. تمنوا ليالي سعيدة وأحلامًا جميلة، ولكن الليلة لم تنته هنا.

تجمع البنات في حجرة نيفين يتبادلن النميمة الساذجة عن باقي الرحلة وعندما اعتذرت سارة وهدى ورجعتا إلى غرفتهما، تحول الكلام كله عن هاشم وسارة. وكيف كان ينظر إليها. كيف

لمح نظرتها التي لم تستسغ الشاي. تعالت همسات بأنها فعلت هذا وهي تعلم تمامًا أنه سيأتي لينفذ لها مطلبها. أخريات دافعن عنها وأخريات أبدين إعجابهن بهاشم وأخريات علقن على فرق السن وتطايرت التعليقات المرحة والضحكات حتى خفن أن تسمع سارة في غرفتها البعيدة. أما في غرفة الشباب، فقرروا ضم الأسرة الثلاث بجانب بعضها لكي يتسع المكان لمبيتهم هم الأربعة معًا. أخرج عمرو برطمان عسل قائلاً أن جدته قد أعطته إياه حتى لا يضعف من الرحلة وأكمل معلقًا:

"كأنني مسافر إلى كوالا لامبور وليس إلى أسوان. صنته طوال الطريق حتى لقد أوجع يدي. من يريد أن يأكل معي. بصراحة إنه رائع."

شجعه إسماعيل بينما ذهب أيمن لإغلاق خصاص النافذة. لمحه هاشم فقال:

"لن أنام والخصاص مغلق. أكره أن يكون الظلام حالكًا هكذا."

فأجاب أيمن دون أن يلتفت وأكمل إغلاق الخصاص:

"وأنا لا أعرف إلا والظلام تام، ثم ألم تنم في مرسى مطروح هكذا؟"

"لقد وافقت مرة وكانت كئيبة، كنت أغلق عيني قبل إغلاق الضوء وأظل خائفًا أن أفتحهما طوال الليل حتى أغرق في النوم، وأنت تعرف هذا."

فالتفت أيمن وواجهه:

"كفانا من حركات العيال."

كيف التحما لحظتها؟ لا أحد يعرف. فوجئ إسماعيل وعمرو بهما كوحشين شرسين لا سبيل إلى فصلهما، رغم قوة إسماعيل وعمرو البدنية. فهذا في فريق الكلة لكرة القدم والآخر لاعب تنس قدير. وكلاهما أضخم من كل من هاشم وأيمن. أصبح الأربعة كتلة واحدة تتحرك بعنف حسب حركات هاشم وأيمن. طار برطمان العسل وانكسر وسال العسل على الأرض. وقعوا على الأسرة المتراصة وجثم إسماعيل وعمرو بثقليهما على الكتلة المتشنجة المشتبكة تحتهما فترة حتى همدوا واستطاعا أن يفصلاهما. كان قميص أيمن مقطوعًا وخده مخموشًا، أما هاشم فالخدوش كانت في الحاجب والجفن الأيمن، والشفة السفلى تنزف قليلاً.

ظل الأربعة ينظرون لبعض وهم يلهثون ثم قام هاشم:

"سآخذ بطانيتي وأنام على الكنبة في الخارج."

أمسك بالبطانية وبدأ في سحبها، إلا أن أيمن احتضنه وقال وهو يكاد يبكي:

"أبدًا والله. فلأنام أنا والخصاص مفتوح لأجلك."

احتضنا بعضهما فقال إسماعيل وسط لهاثه:

"يبدو أن الرحلة كانت مرهقة جدًا. فنحن لم ننم منذ أول أمس، ورحلة القطار كانت هلاكًا، وهو ما أدى بنا إلى ذلك. أنا لم أركما أبدًا بهذا العنف. إنكما لا تلعبان أي رياضة ومع ذلك كل واحد منكما مثل الثور في قوته."

ضحكوا جميعًا وهم يجلسون على الأسرة المنكوشة، ثم تأملوا برطمان العسل المهشم والعسل السائل ثم نظروا إلى عمرو الذي قال:

"طوال الطريق من الإسكندرية إلى أسوان لم يحدث له شيء. يا لكما من ظلمة. ماذا سأقول لجدتي عندما تسألني عنه؟"

فقال هاشم:

"أكلناه يا سيدي."

فقال إسماعيل:

"لا. ما أكلناه بحق هو الضرب."

أكملوا الضحك وهم يلمون قطع الزجاج المتناثر ويمسحون العسل ويلقون به في كيس القمامة بكل حسرة. يغلبهم النوم ويستيقظون في الصباح التالي وقد انمحى هذا الشجار تمامًا من ذاكرتهم حتى أنهم كادوا يُحارون في أمر الخدوش التي رأوها في المرآة.

الإسكندرية سبتمبر 1979

انتهى فصل الصيف فجأة مع انتهاء آخر يوم في شهر أغسطس، وهَلَّ أول يوم في سبتمبر بروعة لا حد لها، اختفى الحر والرطوبة والمصطافون والزحام، واستعاد أهل الإسكندرية مدينتهم من كل هؤلاء الغزاة.

كانت شوارع المعمورة مشمسة بنسيم منعش ومترعة بروائح طزاجة الأشجار ونداوتها. كانت الشلة مجتمعة في شاليه د. أحمد شكري أبو صديقهم كريم في شارع رقم 1. تناثروا في الحديقة الخلفية للشاليه يتعابثون كعادتهم. كانت ألوان ملابسهم المبهجة والمبهرجة، وشعورهم المنطلقة تشي بعنفوان الحياة التي يحيونها ببساطة والتي كانت تميزهم عن كثيرين من طلاب كلية الطب الجادين، فكان عادة ما يطلق عليهم "شلة الأنس" من باقي الطلبة، على اسم الفيلم الذي اشتهر. لكن اختلفت درجاتهم، فمنهم من كان يحصل على درجات الامتياز ومنهم من يعبر السنين بملاحق، مع العلم أن درجات البنات كانت أعلى عادة من درجات الشباب. كانوا يتناطحون في سبب هذا التفوق الأنثوي في هذه اللمة. تبادلوا الاتهامات المضحكة فيما بينهم عن الذكاء والخبث البناتي ومكرهن وتضييع الوقت عند الشباب.

كانت سارة تراقب هاشم منذ أن وصلوا. يشرده شيء ما منذ آخر مرة خرجوا فيها معًا، منذ أن رآها ترتدي سلسلة أمها. إنه لا يتحاشاها ولكنه يبدو كأنه قد وضع جزءًا من روحه في قوقعة وترك الباقي ليتعامل به مع الناس ومعها. تراه يضحك ويمرح ويعترض ويعاند، ولكنها تعرفه جيدًا الآن. إنه يخفي قلقًا. كان يقف مستندًا بكتفه على الجدار الحجري للشاليه وراء المقعد الذي يجلس عليه أيمن في طرف الحديقة. قامت من مقعدها واتجهت إليه ثم عرضت عليه أن يتنزها قليلاً، وافقها سريعًا واستأذنا.

قال هاشم وهما يهمان بالخروج:

"لنر شجرة البشملة التي في البيت المقابل عسى أن نجد بعض الثمر على الأرض."

تسللا للمبنى المواجهة لهم ولكنهم لم يجدا أي أثر، فقال لها هاشم متحسرًا:

"لسنا في أوانها."

فأومأ هاشم بنعم. ثم استدار وقال:

"هيا بنا."

تمشيا في الشارع الخلفي صامتين لفترة حتى تعالت أصوات من شرفة في الدور الأول لأحد البيوت. كانت أغنية لتينا تشارلز. ظهر شاب وفتاة يرقصان على إيقاعها. وعندما اقتربا منهم، أشار الشاب لهما محييًا وهو يضحك، حيته سارة بيدها وأكملت السير. همس هاشم لها:

"هل تعرفينهم؟"

فقالت ببساطة:

"لا. ولكنهم حيونا فحييتهم."

صمت هاشم وأكمل سيره وهو مطرق وبإيقاع بطيء إلى أن سألته سارة بدون أن تتوقف:

"هاشم. مالك؟"

"لا شيء."

"أما زلت تفكر في أمي؟"

"لا. على الإطلاق."

"ولا فيّ أنا؟"

"لا."

"ماذا! ألا تفكر فيّ!؟"

فأجاب بلهفة وهو مرتبك:

"لا. لم أقصد. أنا أفكر فيك طبعًا. ولكن ليس مثل أمك."

فقالت ضاحكة وهي تتأبطه:

"إذن أنت تفكر فيها. لا تنكر. لا تجعل بيننا حاجزًا يا هاشم. الموضوع أبسط من كل هذا."

فقال على استحياء:

"هل تتأثرين بما يحدث في إسرائيل؟"

فكرت وهو يقول لها هذا السؤال الذي توقعت:

"يا إلاهي. كم عمره الآن؟! لقد أكمل العشرين بالكاد. لمحت وجهه الناظر للأرض وعبسة وجهه المحببة إليها. كأنه طفل صغير يسأل أمه "من أين جئتُ؟؟" وهو يتوقع إجابة عجيبة وموحية ولكنه يجهلها تمامًا.

قالت وهي تشد قبضتها على ساعده:

"اسمع. سأقص عليك حدثًا قديمًا."

حفز كل حواسه كعادته وهو يستمع إليها شاعرًا بحضنها المريح. أكملت:

"سألني كريم شكري عندما كنا في ثانية كلية سؤالاً محددًا. أنت تعلم أن الدكتور أحمد والده كان وفديًا قديمًا، أما كريم فهو شيوعي، أو فلنقل هو يصف نفسه هكذا لأنه يظن هذا. سألني مرة: لماذا أنت لست شيوعية مثلنا يا سارة؟ فأنت مثقفة وحالمة مثل كل الشيوعيين؟ لماذا لا تنضمين إلينا؟ أجبته: بأن ما لا يعجبني في الفكر الشيوعي المعاصر أنه لم يتطور وأجهض مشروع تطويره منذ البداية فوقع في أكلاشيهات، تكاد تكون دينية الطابع غير قابلة للنقاش، مثلها مثل فكر الجماعات التي تسمي نفسها إسلامية وكأنها تختص بهذا اللقب عن باقي المسلمين لمجرد أنهم لا يطبقون وجهة نظرهم هم في الدين، ويسمون هذا بشريعتهم. إنكما وجهان لعملة واحدة. هكذا قلت لكريم. مهما حاولتما التقدم يواجهكم مفهوم الحرية. ومن وجهة نظري أن الحرية الإنسانية الواعية بذاتها هي فقط التي لها الحق في إيجاد نفسها. كل منظومة تتشدق بالحرية لكنها تنفي الآخرين ببساطة. ضع على الورق ما تريد وما تشاء ولكن عند التنفيذ كل شيء يختلف. أنت لا تحب فكر الجماعات يا هاشم، كما فهمت من نقاشك الدائم مع أيمن."

"لأنهم يظنون أنهم هم فقط من يملكون الحقيقة المطلقة، هم أحرار في هذا لكن لا يفرضوها علينا، لأنها تنفي حرية الآخر."

"هذا ما أوصله الآن إليك."

"لم أفهم ماذا تقصدين. هل تعنين أنك مع اليهود وعليّ أن أتقبل خلافنا هذا؟"

"بالطبع لا. في رأيي أن إسرائيل مشروع انتحاري لكل اليهود. لقد عادوا أخر ناس كانوا يتقبلونهم. هؤلاء العرب الذين عاش اليهود بينهم، أصبحوا هم الأعداء، ببساطة لأنهم ضعفاء الآن. ولكن ماذا لو اختلفت موازين القوى، وانتهى شهر العسل الفاسد الذي بين اليهود ومضطهديهم السابقين. ثم رغم أن دستور إسرائيل علماني – أي يبيح للآخرين التواجد والتعبير عن أنفسهم بحرية – نجد أن أصل مشروعهم وتطبيقهم له يقوم على أساس ديني وهذا ما يجعل إسرائيل دولة بوجهين متعارضين، أي أن بذرة فسادها فيها، لأنهم لا يؤمنون حقًا بلب الأديان الواحد. وهذا ما فعله النازي الذي كان مثلهم ينادي بالديمقراطية في أول الأمر، وهذا ما تفعله الآن الجماعات. كل واحد فيهم يظن أنه الأفضل والأسمى وخير أمة أخرجت، النهاية دائمًا خراب، الخراب على العالم كله ومن قبله على أصحاب هذا الفكر."

"لكن القوة تحميهم."

"القوى تختلف. أنا قلت لكريم أني أشعر أن المشروع الشيوعي سينهار والاتحاد السوفيتي سيختفي لأن الناس تحب أن ترى حكامًا وليس أفكارًا تحكم بلا تطبيق حقيقي. سخر مني ولا يزال، ولكني ما زلت أمتلك هذا التكهن رغم بعده عن الواقع. أما أمريكا فربما أبعد وقتًا وأطول عمرًا إذا حافظوا على النظام الآلي الذي يحكم مجموع الناس – فالنظام (الذي يشمل الحرية أيضًا بشكل آلي) هو ما سيحفظ الفكر الرأسمالي إلى حين، ولكني أعتقد أن ما قاله ماركس سيحدث والتكتلات الكبيرة ستأكل الصغيرة فينهار شكل النظام ولكن ليس بثورة شيوعية كما ظن."

"إذن أنت تعادين إسرائيل."

"بالطبع. رغم أني مع مشروع السلام الذي عرضه السادات. هذا ما سوف يقلق إسرائيل بحق لأنك تنزع منها الجانب القوي وهو المساندة العسكرية في أمريكا حتى ولو ظلت إلى الأبد تعضدهم بالسلاح. أعتقد أن السادات داهية بحق."

"أيمن يكرهه كره العمى. ويقول خائن. ولا يستمع عندما نتناقش وعندما أقول له أنت تعرفني جيدًا يا أيمن هل تظن أني لا أحب مصر مثلاً، ولكني أرى رأي السادات فهل أنا خائن؟؟ فيقول لي: (أنت لا، هو نعم). ولكن بصراحة يا سارة، أنا غير قادر على الحكم الآن."

ثم صمت وقال:

"ماذا كان شعورك في حرب 73؟"

"يا سيدي أنا لست يهودية والله. أمي فقط هي اليهودية ولم ترد أن تغير دينها وأنا أحترمها لهذا، هذا شأنها الخاص. وأنا أرى أن الصهاينة إرهابيون كما كان الإنجليز ينعتونهم من قبل. وكما يقولون عن العرب الآن. وبيجين نفسه يفتخر بهذا في كتابه عن "الأراجون"، وعلى فكرة حتى أمي نفسها لم تعترف بإسرائيل فلقد كانت من القرائين. أتعرف ماذا يسمى القراءون التوراة بالعبرية؟ المِقْرا "أي القرآن أي الذي يُقرأ."

نظر إليها هاشم باسترابة فأكملت:

"لو أن الجماعات الإسلامية – وهم مسلمون مثلك – قتلوا ونهبوا أناسًا أبرياء من أي دين تحت شعار الدين، هل كنت ستؤيدهم؟"

"بالطبع لا."

"إذن. كما ترى هو شيء طبيعي. لا تعمم. أعتقد أن الغرب هو الذي علمنا عدم قبول الآخرين وحتى اضطهاد اليهود. أهدوا إلينا كراهيتهم بعد المعاشرة العادية التي كانت موجودة. التعصب سبب كل المصائب التي نقع فيها."

"فعلاً!"

"لكن لابد أن ينحق الحق مهما طال الزمن. وسنرى الحق مع من."

فجأة التفت إليها قائلاً وتغير مزاجه واعتدل:

"سارة. أنا أحبك جدًا."

ولثمها على خدها بقوة وبسرعة. ضحكت وتلفتت حولهما وهي تقول:

"يا مجنون. نحن في منتصف الشارع."

من بعيد كانت مجموعة من الشباب، أولاد وبنات، تلاحظ هذه القبلة المخطوفة، وكان من الواضح أنهم يراقبونهما من فترة، طوال مدة سيرهما، ولكنهم كانوا بعدين فصفقوا بمرح وصفر واحد منهم وصاح آخر:

"برافو."

احمرت وجناتها ولكن المشاغبة كانت بمرح أكثر منها بغلظة أو تعدٍ، وساعد هذا الجو الرائع الذي يغلف الجميع بسحر وقت الأصيل. أسرع هاشم محتضنًا سارة ليهربا من الضجيج. كانا قد عبرا السوق والجامع الكبير وانعطفا إلى شارع البحر فتناهى إلى سمعهم أصوات وموسيقى عالية. أنصتا فأتت نغمات الموسيقى مع صوت البحر وصيحات مرحة.

قال هاشم:

"إنها فرقة الحب والسلام، يبدو أنها حفلة أو أنهم يتدربون الآن."

اتجها إلى مصدر الموسيقى ولمحا أناسًا ملتفين حول مدخل شاليه على ناصية الشارع. فعلاً كان أفراد الفرقة يعزفون ألحانهم، وعدد كبير من الشباب يتراقص عليهم في الشارع، انضم إليهم سارة وهاشم. وبدأ في التمايل مع النغم وترديد الكلمات الرقيقة:

"اذكريني يا حبيبتي، ابقي اذكريني....."

الإسكندرية يونيو 1998

لعنت إيناس عبد الهادي الحب ونفسها وقلبها. كان الزحام في محطة الرمل لا يُطاق. لم تجد مكانًا تركن فيه سيارتها القديمة المتهالكة، حتى منادي السيارات تحت الجريدة لم يستطع أن يحتفظ لها بمكان ترجع إليه. قررت أن تغير خط يومها وألغت الذهاب إلى الجريدة واتجهت إلى موقف السيارات أمام فندق سيسل. ستحتسي فنجان شاي في "الصالون" في تريانون. ترددت هل تجلس بالداخل أم الخارج، لكنها لمحت منضدة خالية على الرصيف فاتجهت إليها واستوت على المقعد. طلبت فنجان الشاي وأخرجت هاتفها المحمول ونوت أن تقوم بكل التزاماتها بالهاتف. اتصلت أولاً بالجريدة، ثم بطارق شاهين وأنبأته أنها تنتظره في "الصالون".

هبت نسمة في الميناء الشرقي، أدارت إيناس بصرها في الميدان، فتراءى لها مبنى سيسل الجميل من بعد، والنخيل السلطاني الشاهق المتراص أمامه ثم تمثال سعد زغلول مهيبًا آمرًا، والقلعة رابضة تتلاعب بها أمواج الصهد رغم رسوخها الماثل. فكرت إيناس لماذا تكتسب الأمجاد كل هذا الرسوخ ونفتقده نحن؟ لم أحب طارق؟ لم لا أرحل الآن؟ إنه يحبها ولكنه ينفر من الارتباط يخاف أن يلتزم بحبه لها. يخشى أن يخونها في يوم من الأيام. يكره فكرة قابليته للخيانة ليس بسبب حبه لها ولكن لرأيه في نفسه واحترام ذاته. في بعض الأحيان ترغب في رمي ثقالة الورق المرمرية في وجهه عله يتحطم وتنتهي القصة.

أتى النادل بفنجان الشاي ووضعه أمامها. أخرجت علبة السجائر النعناع من حقيبتها وأشعلت واحدة. يوم أن أحصل عليه سأنتهي من هذه السجائر! مر رجل أمامها وحملق بها فتجاهلته.

تعلق طارق بقصة رجل العشوائيات لآخر مدى. وفي كل مرة يقابله يقص عليها ما حكاه له هذا الرجل. سألته:

"هل تصدقه؟"

"ولم لا؟"

"هل تحضر المقالات الخاصة بهم، هل قاربت على الانتهاء؟"

"لا. لقد قررت ترك الكتابة في هذا الموضوع، أنا أستمع إليه لأنه يجذبني بطريقة ما. قصة حبه لسارة وذكرياته عنها. آه لو رأيت الطريقة التي يسترجع بها ذكرياته. عندما أعود إلى البيت أكتب كل ما قاله. لست أعرف لماذا. كأني أكتب ذكرياتي أنا."

" منذ أن جئت متدربا معنا في الجريدة حتى التحاقك بالوظيفة وأنا أرى فيك صحفيا مميزا. فقط، لا تهمل عملك. طالما قررت عدم صلاحيته كموضوع للنشر "

"لا لقد حضرت مقالات أخرى قد تعجبك."

كل هذه الحكايات عن سارة وهاشم التي رددها عليها لم تؤثر فيها. قصة عادية لا تدري سر انشغاله بها هكذا. لن تنسى اليوم الذي حضر إليها طارق وهو يكاد يجن لأن الدكتور هاشم قد اختفى ولم يعثر له على أثر.

"لقد هُدت العشش، وتم النقل للمساكن الجديدة في زاوية عبد القادر، واستلموا الشقق الجديدة التي خصصتها لهم المحافظة ولكنه اختفى كأنه لم يكن. لم يره أي منهم. أكاد أجن. أذهب هناك كل يوم عله يظهر. لكنه ذاب تمامًا. رجعت إلى مكان العشش على شريط القطار، ربما آب إليها. كل شيء اختفى وزال."

"لا تحزن. ربما كان أفاقًا والموضوع كله كذب للنصب عليك."

"لا. لقد راجعت كشوفات كلية الطب ووجدته فعلاً تخرج في عام **81**. هاشم سعد الصادق. حاولت أن أحصل على رقم هاتف أبيه ولكني لم أجد هذا الاسم في دليل أرقام الهاتف الحديث، رجعت لدليل قديم ووجدت رقم خماسي، سألت في السنترال عن الرقم الجديد، وطلبته، رنين لا ينقطع ولا رد، ذهبت إلى العنوان، شقة مغلقة منذ سنوات. أكاد أجن يا إيناس. كأن الأحداث قد توقفت فجأة. انبترت."

"ألم تقل لي أن له أخ اسمه فؤاد؟"

"أيضًا لا يوجد اسم في الدليل له. أخشى أن يكون هذا الأخ اختراعًا مثل كل القصة."

"اعطني الأوراق التي كتبتها كلها، ربما أستطيع أن أصل لشيء."

ها هي تنتظره ومعها الأوراق كلها بحل مقترح قد يفيد حتى تنتهي من كل هذا. لمحت طارق وهو يمد الخطى تجاهها، يعبر من اتجاه القنصلية الإيطالية، عبر بين السيارات المتداخلة البطيئة، حياها وجلس وهو يتساءل:

"تقولين وجدت حلاً؟"

"فلتقل صباح الخير على الأقل."

"آسف. ألف خير وألف زهرة جميلة لأجمل وأحلى وأرق إنسان."

فقالت وهي تقرصه برقة في يده:

"هذا ما نأخذه منك. لا شيء سوى كلمات."

فتعجلها:

"هه. قولي أرجوك."

"هلم بنا إلى كلية العلوم."

"لم؟"

"ألم تقل أن أخيه يعمل في كلية العلوم؟"

"لكني لم أجد اسمه في دليل الهاتف.! ربما كان وهمًا."

"فلنجرب لن نخسر شيئًا."

ناقشا الاحتمالات وهما في طريقهما إلى محرم بك حيث كلية العلوم إلى أن وصلا إليها، ارتقيا سلالمها العالية حتى أعلى الربوة المبنية عليها. سألا عن قسم الحشرات فدلهما الملاحظ. كانت امتحانات آخر العام تشغل أرجاء الكلية. وصلا للقسم ودخلا للسكرتارية وسألا عن الدكتور فؤاد الصادق، قالت السكرتيرة إنه في غرفته ودلتهما عليها. دقا على الباب ثم استأذنا في الدخول وعرفاه بشخصيتهما وجريدتها. رحب الرجل بهما فسأله طارق إذا كان له أخ طبيب اسمه هاشم، فأجاب:

"نعم. هل تعرفانه؟"

فتحرج طارق وقال إنه فقد الاتصال به بعد أن ترك عشش الحضرة وانتقل إلى زاوية عبد القادر، بدا التحير على د. فؤاد فسألته إيناس:

"هل تعرف عنوانه الآن؟"

فقال بدهشة مستمرة:

"طبعًا. إنه لم يغير عنوانه. وهو مازال في فرنسا منذ أن سافر."

"سافر!!! متى؟"

"منذ فترة طويلة. بعد أن تخرج من الكلية. يبدو أن هناك لبس ما."

فاضطر طارق أن يقص عليه مقابلته مع هاشم واختفاءه.

فقال د فؤاد:

"ما تقوله غريب ولا يُعقل."

ثم صمت. فقالت إيناس:

"هل تتكرم وتعطينا عنوانه في فرنسا."

فبدا التردد عليه للحيظة ثم قال:

"لا مانع."

وأخرج بطاقة له كتب عليها عنوانًا وناولها لإيناس وهو يقول:

"أرجوكما. لا أريد أن تنشر أكاذيب عن أخي بأي حال."

"طبعًا. لا مجال للنشر على الإطلاق."

استأذنا وخرجا من الغرفة بعد أن ودعهما د. فؤاد وقبل أن يدخل مرة أخرى في غرفته سأله طارق:

"سيدي. لم أجد رقمًا لك في دليل الهاتف."

"كيف هذا؟"

"هكذا!"

فتدارك د. فؤاد:

"أي نعم. ربما بحثت تحت اسم فؤاد الصادق، أنا اسمي مركب (أحمد فؤاد) فهو تحت حرف الألف وليس الفاء."

فقال طارق:

"آه. فعلاً. هذا سبب ما حدث. شكرًا مرة أخرى."

في السيارة سألها طارق:

"هل تظنين أنه اخترع هذه حكاية سفر أخيه لينقذ به اسم العائلة؟"

"والعنوان الذي معك؟"

"وهم هو الآخر."

فكرت إيناس، فليكن أي شيء، فلتنته من هذه الدوامة التي لا تتوقف.

"لماذا أنت صامتة؟"

"نستطيع أن نتأكد."

ثم أمسكت بيده وقالت:

"هل تحبني يا طارق؟"

أومأ برأسه بالإيجاب وهو يضغط على دواسة البنزين. أوصلها إلى منزلها وقبل أن تنزل قالت له سأنتظرك مساءً في الجريدة.

"سأحضر لأن عندي عملاً كثيرًا."

ركضت على السلالم ودخلت مسرعة إلى غرفتها وهل تلقي بالسلام على والديها. أرسلت رسالة إلكترونية بالكمبيوتر إلى سالم منصور في باريس. تطلب منه أن يتأكد من وجود طبيب بهذا الاسم في العنوان الذي حفظته عن ظهر قلب، وطلبت منه ألا يخبر أي شخص بهذا لأي سبب. فالصداقة بينهما كانت تسمح لها بطلب أشياء دون تبريرها. فكرت (ولكن سالم سيفهم طبعًا من أقصد.)

أنهت الرسالة: (على وجه السرعة، أرجوك. وشكرًا مقدمًا يا سالم.)

في المساء، وصلت الجريدة مبكرًا عن موعدهما. تفحصت البريد لم تجد شيئًا. كانت قد وضعت خطة وعزمت على تنفيذها، لكنها في انتظار هذه الرسالة الإلكترونية التي لا تصل تفحصت بريدها عدة مرات، حتى وجدت الرد أخيرًا.

(عزيزتي إيناس

كعادتك محيرة. نعم. يوجد طبيب بهذا الاسم في هذا العنوان. لم أعرف أكثر من هذا. وسأتكتم الأمر كما أمرتِ. بالذات عن طارق. أليس كذلك؟ سلامي للكل.

سالم منصور)

قرأت الرسالة عدة مرات. إنها ترى (نعم) واضحة مرة، واثنين وثلاث. لم تهتم بما تعني هذا الـ (نعم) سوى فائدتها لها هي. رتبت الكلام بحرص في انتظار مجيء طارق. وعندما سمعت صوته وهو يلقي السلام على الزملاء خارج غرفتها، ضغطت زر المحو وهي تلقي بنظرة أخيرة على (نعم). تأكد الكومبيوتر من الطلب مرة أخرى:

"هل تريدين مسح هذه الرسالة؟"

نعم! نعم! قبل أن يدلف طارق.

جلس أمامها باديًا عليه التعب والإرهاق رغم سلامه المرح على الزملاء منذ لحظات. قامت ووقفت خلفه ولمست يدها يده الموضوعة على المكتب وهي تقول:

"طارق! فلننهِ كل شيء! اذهب إلى باريس ولنطرح أي احتمال. مثلاً، إذا وجدت دكتورك هاشم هذا، ارجع ونتزوج."

فقال:

"تقصدين رمية زهر.!"

فقالت بأمل:

"وافق يا طارق."

آلمه العرض، فقال بأسى:

"نعم. أوافق."

وبرعب حقيقي فكرت أنه لو عرف أنها تأكدت من وجود هذا الشخص... أيًّا كان.... في باريس، فستقلب عليها الآية وينعكس السحر. فقالت بحال المريب يقول خذوني:

"إذا أردت فلتسأل سالم منصور، فهو في باريس كما تعلم."

"لا سأذهب أنا."

امتلكها الرعب وحاصرها:

"إذن. اذهب إليه أولاً. اذهب معه. نحن لا نعرف إذا كنا سنجده أم لا. أرجوك يا طارق اتصل بسالم. اعرف منه المكان."

قبلها على خدها وهو يقول:

"سنعرف ونتأكد وسأرجع..... لا تخافي!"

لاني – سور – مَرن يوليو 1998

"كما قلت لك. إنها قريبة جدًا من باريس. 28 كيلو متر فقط. بلد صغير وجميل. لم تشأ زوجتي أن ننتقل للعيش في باريس حتى بعد استقرار عملي الخاص هناك."

تأمل طارق شاهين الرجل الذي يجلس بجواره في سيارته. إنه ليس هاشم الصادق الذي يعرفه. هل تصور طارق أنه سيجد نفس الشخص هنا؟ عندما زاره في عيادته، سمح له بالدخول عندما علم أنه صحفي من مصر. قال له:

"أنا انتهيت من عملي الآن، وعندي كل الوقت لسماعك، لكن أولاً، اسمح لي... أنت مدعو عندي على الغذاء. سأتصل بزوجتي لأنبئها، وسنتكلم خلال الطريق إلى المنزل."

كانت طريقته بسيطة وقريبة إلى النفس مما جعل طارق يتخفف من الحرج الذي واجهه في أول الأمر. قص عليه كل الأحداث التي مرت به منذ أن قابل...... هاشم الصادق في الإسكندرية.

"آسف أنا مضطر أن أُسمي الآخر هاشم الصادق لأني لا أعرف له اسمًا آخر. كما أنني شعرت بصدقه فيما يرويه رغم بعض التشوش الذي كان ينتابه."

"كمّل إلى النهاية، أنا مستمع إليك ولن أعترض أو أقاطع حتى تختم." استمر طارق شاهين في الكلام حتى وصلا إلى بيت الرجل في لاني – سور – مَرن. تقدمت إليهما امرأة ذات ملامح فرنسية واضحة. رحبت به فقدمها له:

"سيد طارق شاهين، أقدم لك زوجتي جولي."

"تشرفنا."

"هذا السيد شاهين من مصر، والإسكندرية بالذات."

"رائع. أن الفرنسيين يعشقون كل شيء مصري. لذلك وقعت في غرام هذا الفاتن المصري من زمن بعيد."

تابع الدكتور كلامه:

"عندما حضرت إلى فرنسا. سكنت أول الأمر في قرية "دامار" المتاخمة لهذه المدينة، حيث لم تكن تكلفني إقامتي فيها كثيرًا سوى المواصلات اليومية لباريس. وهنا تعرفت على جولي وتزوجنا وأقمنا."

استأذنت جولي وهي تقول:

"الطعام سيكون جاهزًا بعد قليل."

جلسا في الحديقة وأكملا حديثهما.

"حتى الآن، أنا لا أفهم شيئًا يا سيدي. اعذرني يا د. هاشم."

"ما قصصتَه لي هو بعض ذكرياتي فعلاً، ولكني بالطبع لست الشخص الذي قابلته. استسمحك ثوانٍ سآتي بشيء من الداخل."

تُرك طارق شاهين في حيرته ومحاولات الفهم. لفت نظره وجه طفلة صغيرة ملائكية المُحيا تطل من باب الحديقة الزجاجي، وتختفي نصف اختفاءة. أشار لها فظهرت بالكامل واقتربت بخجل. ابتسم لها وشجعها على الاقتراب أكثر. مد يده فسلمت عليه. سألها بالفرنسية:

"ما اسمك يا حلوتي؟"

أتى صوتها هادئ ونضر:

"تودد."

لم يستوعب الاسم جيدًا للكنة التي نُطق بها، فظن أنه اسم فرنسي فاستعادها مرة أخرى.

"تودد. اسمي تودد."

عندئذٍ أدرك طارق أنه أمام هاشم الصادق نفسه، ولكن المتاهة تشعبت تمامًا ووصل لطريق سدُ. دخل هاشم فجرت إليه تودد واحتضنته فرفعها وقبلها وقال لها بعربية بطيئة ولكن واضحة:

"هل قلت مرحبًا للضيف يا حبيبتي؟"

فالتفتت إليه وقالت بعربية مُلكنة:

"مرحبًا."

فقبلها أبوها ثم قال بالفرنسية:

"هيا يا مليكتي، لندع بابا يتكلم مع ضيفه."

التفتت تودد إلى طارق واستأذنت منه واختفت داخل البيت.

قال طارق:

"يا لها من ملاك!!"

ثم أكمل وهو ينظر إلى د. هاشم:

"كنتُ أظن أن اسمها سارة."

فرد هاشم:

"لم أستطع أن أسميها سارة، لأن سارة لم تكن لتتكرر."

ثم أضاف بحزن:

"لقد أسميتها باسم الحلم الذي طالما راودها. توودد. رغم صعوبته في النطق باللغة الفرنسية. كل ما حكيته صحيح يا سيدي، لكن ينقصه الكثير. مهما رويت لك عن سارة فلن أوفيها حقها. لقد تزوجنا في سبتمبر 79 قبل أن أتخرج. لم يعلم أحد بزواجنا غير هدى وجيران سارة. عندما عرضت على أهلي فكرة الزواج استسخفوها لصغر سني وفرق السن بيننا وأسمعوني فيها ما لا أحب أن أكرر. قالت لن نضيع وقتًا. كانت تشعر أن العمر قصير والسعادة إذا أتت فلا يجب أن نرفضها تحت أي شعار. لم يشعر أهلي بالزواج لأني كنت أذاكر كثيرًا خارج المنزل. المضحك في الأمر أني أنا الرجل كنت من أخفى الزواج وليس هي، لكننا لم نخبر أيًّا من أصدقائنا كما قلت إلا هدى صديقتها وربما عرفت صفية أخت هدى لكنها تكتمت الأمر... رغم أن بيننا ثلاث سنوات دراسية فقط إلا أن الفرق الحقيقي كان ست سنوات تقريبًا لأني درست الثانوية الإنجليزية فدخلت الكلية أصغر عامًا عن دفعتي، وهي أكبر من دفعتها بسنتين، إحداهما لأنها مولودة بالمغرب وعندما رجعوا إلى مصر فاتت سنة نتيجة لروتين النقل والأخرى لأنها دخلت أصلاً مدرسة فرنسية وهم عادة ما يدخلونها سنة متأخرة، غير أن هذا الفرق العمري أكسبها حنانًا غير قابل للنضوب. أستطيع أن أقول أنها كانت أمي وزوجتي وصديقتي وحبيبتي في نفس الوقت..... ورغم حبي لها وافتتاني وغرامي بها فأنا السبب الأساسي في موتها."

"كيف هذا؟ ألم تكن أنت من دافعت عنها يوم الحفلة؟"

"لقد ماتت بعدها بيومين. أنا لم أحافظ على سرها. كان أكبر من طاقتي. لقد كنت كالطفل الغرير، لم أكن أتصور أنني إذا قلت لأيمن أن أمها يهودية فسيؤدي بنا هذا نحن الثلاثة. لقد كنت أقص عليه أدق تفاصيل حياتي ومشاعري. كان حبها أكبر من أن أحتفظ به في قلبي. كان يفيض عن كياني كله."

صمت وشرد في عالم مضني، فهمس طارق وكأنه يواسيه:

"هل رجعت إلى الإسكندرية بعد سفرك؟

"لم أستطع. لكل منا خط لا يستطيع عبوره، حد فاصل للغواية. سارة ساعدتني على تخطي هذا الحد. كانت تحب الحياة وتؤمن بأن الحياة هبة من الله تعالى، يجب أن نحياها إلى أقصى مدى، ولكن ليس لنا أيضًا الاعتراض على كوننا بشر. أنا بمساعدتها استطعت أن أحيا كما تريد هي مني. أكملت دراستي، تزوجت، أنجبت... أحب زوجتي. بالطبع ليس مثل حبي لسارة. سارة مثل الأم لا تعوض بأم أخرى. أتيتُ بتودد إلى عالم أؤمن بأن على أن أحسنه وأجمله لها كي تستطيع أن تحيا وأن

تستمتع به. أما الحد الذي لم أستطع تخطيه هو الرجوع إلى الإسكندرية أبدًا. ذلك رغم أنني ما زلت على اتصال دائم بأصدقائي هناك. أنت تعرفهم الآن أليس كذلك؟ إسماعيل مع زوجته في السعودية وعمرو في الإسكندرية كما هو، صفية تزوجت وطلقت ثم تزوجت مرة أخرى وهاجرت إلى الولايات المتحدة..."

"ولكن من الذي قابلته...؟"

"إنه أيمن. بعد الحفلة القاتلة التي أصيبت فيها سارة وتوفيت بسببها، ألقي القبض على عدد من الطلاب بمن فيهم أنا إلا أن إصابتي أخرجتني ليلتها. بعدها سافرت أنا وكتب لي عمرو أن أيمن قد أُصيب بلوثة ما. أنه كان يتكلم معهم على أنه أنا وليس هو، ثم لم يكمل تدريبه العملي. كانت الأمور في أول الأمر مُسيطر عليها. أتعرف الذاكرة الجمعية؟ إن ذكرياتنا تداخلت تمامًا حتى لقد فشل في فصل ما له وما لي وما هو لسارة التي كنت كثيرًا ما أردد حكايتها أمامه. إلا أن الأمر ازداد سوءً فيما بعد، فلقد كتب لي عمرو منذ فترة طويلة أن أيمن قد ترك بيت أهله وأنه كان يتغيب لفترات طويلة، ثم لم يعد يظهر على الإطلاق وهذا ما يفسر الأحداث الآن."

فقال طارق مكتئبًا:

"أظن هذا."

"لم يستطع أيمن أن يعبر بسلامة."

فقال طارق:

"ولا سارة. مما حكيته لي. لست أعرف ما الذي جعلها تستسلم لحد الجنون هذا. ما الذي جعلها تستبدل قصيدة "لا تصالح" التي ربما كانت تهدئ من الجو المتوتر، لم وكيف اختارت قصيدة سبارتاكوس لأمل وهي تعي مقدار عنفها على من لا يأخذ الشعر بمقامه الصحيح؟ وأمام من؟!"

"هذا لغز أنا نفسي حرت في تفسيره."

"ألم تقل لك شيئًا بعد الحفل؟"

"لقد حملتها رغم ذراعي المكسور والدم ينزف منها بغزارة، لكنها كانت تنظر إلي وتبتسم وكأنها تطمئنني، أو كأنها توصل لي رسالة. ورغم عنف كل هذه الأحداث إلا أنها بعثت لي طمأنينة يصعب التعبير عنها. وكأنها معي دائمًا. كأنها تثبت لي أن الموت لا يذهب بالروح ويمحوها. وهذا ما وصلني. لذا قررت أن لا أتردى مثل أيمن وأحافظ على صفاء روحي، فهي دائمًا معي."

"اسمح لي هل جولي زوجتك تعرف كل هذا؟"

"نعم. تعرف معظمه. تعلم أني أتعامل وكأن سارة معي رغم أننا لا نتكلم عنها أبدًا.... لكنها تعلم."

نادتهما جولي قاطعة حديثهما:

"تفضلا. الأكل جاهز."

جلسوا إلى الطعام الأنيق البسيط. تناولوا قليلاً منه، بينما يحاول طارق أن يتغلب على إحساسه بانقباض قلبه. كان هاشم يدلل ابنته ويبتسم لزوجته إلا أن طارق كان قد لمح نظرة خاطفة من الأسى الذي لا ينمحي أبدًا.

انتهى الغذاء ورجعا إلى الحديقة، فأخرج هاشم ألبومًا ضخمًا للصور، بينها الأبيض والأسود والألوان السبعينية. بدأت الشخصيات تتجسد أمام عيني طارق.

– هذه سارة أمام البحر في المنتزه.

– الشلة في فيلا عمرو بالعجمي.

صفية، هدى، سارة، نيفين، وهالة أمام شاليه كريم في المعمورة.

إسماعيل وأيمن في فيلا هدى في الهانوفيل.

أنا وسارة وأيمن في حفل رأس السنة في شقة نيفين.

شلة هدى وأخوتها على اليمين وصفية وأخوتها على اليسار.

شلة الأنس كلها.

وتوالت الصور حتى خُلق عالم جديد قديم، عالم من الأشباح تحاول أن تؤكد وجودها الوهمي. ظلت تتوالى وتتوالى وتُبدئ علاقات متشابكة جديدة لا أمل في تخليصها أو إنهائها. شعر طارق أن عليه الذهاب فورًا. الفرار. استأذن من د. هاشم الذي أصر أن يرجعه إلى باريس لفندقه، إلا أن طارق اعتذر بلطف وأبى بشدة. ودع أسرة د. هاشم وتركهم ومضى لمحطة القطار.

ما قد يحدث لهاشم الصادق قد لا نعرفه أبدًا، هذا العالم المسترجع. سارة.

أما طارق شاهين فجلس في القطار المتجه إلى باريس وبقى واجمًا غير قادر على التفكير مطلقًا وكأن الصور التي رآها تمنعه. وصل إلى محطة الشرق، وخرج منها بلا هدف. لا يريد الرجوع إلى فندقه. سار إلى شارع سباستوبول حتى وصل إلى السين ثم انحدر إلى معهد العالم العربي، ثم تذكر أن الجامع قريب منه. اتبع إرشادات خرائط مداخل المترو حتى وصل إليه.

كانت صلاة العصر قد انتهت والمصلون مجتمعون في حلقات. ولج للداخل وجلس مستندًا على أحد الأعمدة، تتابعت المشاهد التي رآها في ألبوم الصور. أحس أن العالم كله يضيق ولا يترك

مسافة له. بدأت الدموع تطفر من عينيه، ثم لم يتمالك نفسه، أصبح ينتحب بصوت عالٍ وينشج ودموعه الغزيرة تكاد تغرق وجهه. دفن وجهه بين ركبتيه وغطى رأسه بساعديه. لم يعد قادرًا على السيطرة على عويله. أصبح جسده كله يهتز ببكائه. لم يعرف كم من الوقت قد مر حتى لمس كتفه أحد المصلين، فرفع نظره إليه، سأله بلغة عربية توحي أنه من المغرب العربي عن سبب بكائه:

"هل سرقت نقودك أو جواز سفرك؟"

حاول أن يلتقط أنفاسه وأحس بالخجل الشديد لكنه لم يعد يمتلك روحه أو جسده. أومأ وسط دموعه بلا. فأعاد المغربي السؤال:

"ما بك يا أخي؟ لا تخجل. قل لي."

لاحظ أن جميع من في المسجد ينظرون إليه وينتظرون رده، فقال متحاملاً على نفسه:

"أنا آسف كل شيء على ما يرام."

"هل سُرقت؟"

"لا. أنا آسف لإزعاجكم."

"ماذا حدث إذن؟ فيم بكاؤك؟"

لو عرف هو نفسه لقال ولكنه يشعر بالوحشة والغربة والوحدة وأنه فقد حبيبًا غاليًا وغير قادر على استعادته.

"اهدأ. واذكر الله. (ألا بذكر الله تطمئن القلوب.)"

فتنفس قليلاً ثم نظر إلى المغربي وقال:

"يا رب!"

تمت

عمرو عافية

الإسكندرية

2002/12/2

amruafia@gmail.com

كتب أخرى للمؤلف

الماء الحرام

قصة حب أكتوبرية

رقصات الرؤى المشوشة

عربيد عشق أباد

حرية سليمان

منزل بلا أساطير